فلسفة

فيليب دِلِرم

الجرعةُ الأولى من البيرة

وملذّاتٌ صغيرة أخرى

ترجمه عن الفرنسية: محمَّد آيت حنَّا

المتوسط

الجرعةُ الأولى من البيرة

وملذَّات صغيرة أخرى

المؤلف: فيليب دِلِرم / المترجم: محمَّد آيت حنَّا
عنوان الكتاب: الجرعةُ الأولى من البيرة، وملذَّات صغيرة أخرى
الطبعة الأولى: 2025 / تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 979-12-5591-119-7

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
www.almutawassit.it / info@almutawassit.org

فيليب دِلرم

الجرعةُ الأولى من البيرة وملذَّات صغيرة أخرى

ترجمه عن الفرنسية: محمَّد آيت حنَّا

المتوسط

سكِّينٌ في الجيب

بالطّبع، ليست سكِّين مطبخ، ولا مُدْيَة بلطجيٍّ. ولا مطواةً. لنقُل إنّها سكِّينٌ من نوع أوبنل رَقْم 6، أو من نوع لاغيول. سكِّين كان يمكن أن تكون سكِّينَ جَدٍّ مثاليٍّ، جَدٍّ مُفترَض. سكِّين كان له أن يدُسَّها في بنطالٍ من مخملٍ بلون الكاكاو واسع الحواشي. سكِّين كانَ ليستلَّها من جيبه ساعةَ الغداء، فيشكَّ بطرفها شرائحَ النقانق، ويقشِّر بها تفَّاحَتَه على مهلٍ، وقد أمال قبطته حتَّى لامست النّصل. سكِّين كان ليُغلقَها في حركةٍ طقوسيَّةٍ فخمةٍ، بعد أن ينتهيَ من شرب القهوة في كأسٍ زجاجيَّة، وسيفهم الجميع من حركته تلك أنّ أوان استئناف العمل قد حان.

سكِّين كان المرءُ ليجِدَها رائعةً لو أنّه كان طفلاً: سكِّينٌ للقوس والنُّشَّاب، سكِّينٌ تَقدُّ بها سيفَ الخشب، والحارسَ المنحوت من لحاء الشَّجَر- السكِّين التي كان والداكَ يريانها خطيرةً، أيَّامَ كنتَ طفلاً.

لكن، سكّينٌ لمَ؟ والحالُ أنّ زمان الجَدِّ مضى وانقضى، وأنتَ لم تعد طفلاً. سكّينٌ افتراضيّةٌ إذن، وذريعةٌ حمقاء:

- لكنّها قد تصلح لأشياء شتَّى، للنُّزهة، والرّحلات، بل وحتَّى للأشغال اليدويَّة حين تعوزُك الأدواتُ ...

لن تفيدكَ في شيء، ذلكم ما تشعر به فعلاً. ليست المتعةُ في الفائدة. إنّما هي متعةُ الأنانية المطلقة: متعةُ تملُّك شيء جميلٍ عديم

الفائدةِ، مصنوعٍ من الخشب الدافئ أو عرق اللُّؤلؤ الأملس، وقد نُقشَت عليه تلك العلامة الغامضة التي تشير إلى الجَسورين الحقيقيّين: يدٌ متوَّجَةٌ، مِظلَّةٌ، عندليبٌ، نحلةٌ على المقبض. بلى، بلى، ما ألذَّ حبَّ المظاهرِ حين يتعلَّقُ برمزٍ من رموز الحياة البسيطة. في عصر آلة الفاكس، كان ذلك هو الترف الرّيفيّ. أن تملك شيئاً يخصُّكَ وحدَكَ، شيئاً يملأ جيبَكَ بلا داعٍ، تُخرجه بين الفينة والأخرى، لا لتستخدَمه، بل فقط لتتلمَّسَه وتتملّاه، طلباً للرّضا الحميد الذي يخلِّفُه في النّفس فتحُه وإقفالُه. في هذا الحاضر المجّانيِّ يرقدُ الماضي. لثوانٍ يشعر المرء بنفسه وقد صار، في آنٍ، الجَدَّ الرِّيفيَّ ذا الشارب الأبيض والطفلَ العابق برائحة البيلسان عند نبع الماء. ما بين اللّحظة التي تفتح فيها الشَّفرة واللّحظة التي تغلقها فيها، ينتفي الزّمن المعتادُ، فلا تكون بين عصرَين، ماضٍ وحاضر، بل تكونُ أنتَ عَصرَين – ذلكم هو سرُّ السكِّين.

علبة الحلوى
صباح الأحد

حلوياتٌ منفصلةٌ، طبعاً. حلوى روليجيوز بالقهوة، وحلوى باريس-بريست، وكعكتان بالفراولة، وحلوى ميلفوي. باستثناء حبَّةٍ أو حبَّتَين، نعلمُ مصير كلِّ قطعةٍ منها، ومَن ذا الذي سيتناولها - لكنَّ أيَّ قطعةٍ منها ستبقى في الأخير، ليتناولها المولع بالطّعامِ، زيادةً على قطعته؟ نتلو الأسماء بلا استعجالٍ. على الجانب الآخر من المنضدة، تغوص البائعة، وملقط الكعك في يدها، تلبيةً لرغباتكَ؛ حتَّى إنّها لا تُبدي نفاد صبرها عندما تضطرُّ إلى تغيير العلبة - فهذه العلبة لن تتَّسع لحلوى الميلفوي. هذه العلبة المسطَّحة والمربَّعة، ذات الحوافِّ المستديرة والمرتفعة، مهمَّةٌ جدّاً، فهي ستُشكِّل القاعدة الصّلبة التي يرتفع عليها صرحٌ هشٌّ، مصيرُه غير مؤكَّد.

- هذا كلُّ شيء!

ثمَّ تغمرُ البائعةُ العلبةَ الكرتونية المسطَّحة في كيس ورق ورديٍّ، وتربطه على الفور بشريطٍ بنِّيٍّ. بينما تدفع النّقود، تحمل الرّزمة من تحت، ولكنْ، ما إن تفتح باب المتجر حتَّى تمسك بها من الخيط وتبعدها قليلاً عن الجسم. هكذا تسير الأمور. تُحملُ حلوى الأحد كما يُحملُ بندول. ثمَّ تمضي قُدماً، بلا غطرسة ولا تواضع زائف، كالمستنبِئ المنقِّب عن الطّقوس الضّئيلة. أليست هذه الرّزانةُ وهذه الجدِّيَّةُ أمراً سخيفاً؟ كلاَّ.

إذا ما كانت أرصفةُ يوم الأحد تفوح بنكهة النزهة والتسكُّع، فإنّ للعلبة المتدلِّية يداً في ذلك – شأنها شأن حبَّات الكرَّاث التي تطلُّ، هنا وهناك، من أكياس التسوُّق.

علبة حلوى في اليد، وأنتَ تسير متَّخذاً هيئة البروفيسور تورنوسول[1]- الهيئة اللازمة لتحيَّة فورةِ ما بعد القدَّاس، وهَبَّاتِ المراهنات والقهوة والتبغ. آحادُ العائلة الحيميَّةُ، آحاد الأمس الحميميَّة، وآحاد اليوم الحميميَّة، هكذا يتأرجح الوقت كمبخرة عُلِّقت في طرف شريطٍ بنِّيٍّ. ولا شيء يلطِّخ المشهد، إلَّا قليلٌ من القشدة على الجزء العلوي من حلوى الروليجيوز بالقهوة.

1) من شخصيات القصص المصوّرة "تان تان". (الحواشي من وضع المترجم ما لم ترد الإشارة إلى خلاف ذلك).

أن تساعد في تفصيص البازلَّاء

يكاد يحدث هذا دائماً في تلك السّاعة المنفلتة من الصباح، الساعة التي لا يعود الوقت يميل فيها إلى أيِّ شيء. لقد نُسيَت أواني الفطور وفتاتُه، وروائحُ الغداء ما تزالُ بعيدة، والمطبخُ هادئ جدَّاً، يكاد يكون لوحةً مجرَّدةً. لا شيء على القماش المشمَّع سوى مربَّعٍ من ورق الجرائد، وكومة من البازلَّاء، ما تزال في قرونها، ووعاء سَلَطة.

لا تصادفُ قطُّ بدايةَ العمليَّة. تكونُ مارَّاً من المطبخ، قاصداً إلى الحديقة، كي ترى هل مرَّ ساعي البريد ...؟

- هل لي أن أساعدك؟

والجواب بيِّنٌ بنفسه. نعم، لكَ أن تساعدَ. بوسعكَ أن تجلس إلى المائدة العائليَّة، فتجد على الفور ذلك الإيقاع الهادئ والمسالم، إيقاع تفصيص البازلَّاء، الإيقاع الذي يبدو كالطّالع من بندولٍ باطنيّ. تفصيص البازلَّاء سهل. ضغطة واحدةٌ من الإبهام على الشقِّ في قرنِ البازلّاءِ، فتنفتح، سهلةَ الانقياد، مِطواعاً. إلَّا أنَّ ثمَّة عدداً قليلاً منها، يكون أقلَّ نضجاً وأكثر مقاومةً - وهنا تعمد إلى شقِّها بظفر السّبَّابة، يتمزّق النّسيج الأخضرُ، فيسري فيكَ الشّعور بالبلَل وبكثافة النّسيج، مباشرةً تحت الجِلد الذي يكتسي رقَّةً زائفةً. ثمَّ، بإصبع واحدةٍ، تدفع الحبَّاتِ، فتنزلقُ. الحبَّةُ الأخيرة تكون صغيرة جدَّاً. وأحياناً تنتابك الرّغبة في قضمها. إنها

ليست طيِّبة، بها شيءٌ من مرارة. لكنّها طريَّةٌ، كمطبخ السّاعة الحادية عشرة، مطبخِ الماء البارد، والخضروات المقشَّرة - وطوعَ اليد، لِصقَ الحوض، جَزرٌ مبشورٌ يلمع على منشفةٍ، في انتظار أن يجفَّ.

وفي أثناء ذلك تتحادَث على دفعاتٍ قصيرة، وهنا أيضاً تبدو موسيقى الكلمات كالطّالعة من الأعماق، هادئة ومألوفة. وبين الفينة والأخرى، ترفع رأسكَ لتنظر إلى الآخر، إلى مخاطبكَ، عند نهاية جملةٍ؛ لكنْ، على الشخص الآخر أن يُبقيَ رأسَه مَحنيَّاً - فهذا جزءٌ من القانون. تتحدّثان عن العمل والمشاريع والإرهاق – لا مجالَ لعلم النَّفس. إنّ تفصيص البازلّاء لم يُجعَل ليَشرَح ويُفسِّر، بل ليُتابِع المسار الذي تتخلَّلُه عوائق بسيطة. لن يستغرق الأمر أكثر من خمس دقائق، لكنْ، من الجيِّد أن تمطِّط العملَ، وأن تستمهل الصباحَ، قرناً بعد قرنٍ، وأكمامُكَ مشمَّرة. تخلِّل بأصابعكَ الحبَّات المقشَّرة التي تملأ الوعاءَ. إنها ناعمة؛ كلُّ هذه الحبَّات المتجاورة المتلاصقة تصنع ما يشبه ماءً أخضر ناعماً، فتندهش حين تلمسُها من عدم تبلُّل يدَيكَ. صمت طويل من الرّضا الخالص، ثمَّ :

- بقيَ فقط أن تخرجَ لشراء خبز.

أن تشرب كأس بورتو

نفاقٌ من البداية:

- فلنشرب قليلاً من البورتو!

تقولها بتردُّدٍ ضئيل بالكاد يُلحَظ؛ ضربٌ من التواطؤ المقيِّد. بالطبع، أنتَ لستَ من أولئك الذين يَصدُق عليهم وصفُ «هادم اللَّذّات»، أولئك الذين قد يرفضون أيَّ فاتح شهيَّة. لكنّ القولَ «فلنشرب قليلاً من البورتو» ينطوي على قَدْرٍ من الانقياد والتّنازل أكثر ممَّا ينطوي على الحماس. ستؤدِّي دورَكَ، وتلعب اللّعبة، لكنْ، على الضيِّق، وبصوتٍ خافت، بجرعات مختلَسَة.

البورتو، لا يُشرَب، بل يُرتشَف. والسبب في ذلك هو سُمكه المخمليُّ، وأيضاً التقتير المفتعَل في شربه. فبينما ينغمس الآخرون في مرارة الويسكي والمارتيني- الجي، تلك المرارة الباردة المظفَّرة، تنغمس أنتَ، شاربُ البورتو، في دفءِ فرنسا العتيق، ونكهة فاكهة حديقة الخوري، وحلاوة التقادُم - أي فيما بالكاد يكفي لتتورَّدَ وجنتا آنسةٍ.

حرفا o في كلمة بورتو porto، ينسابان في قعر القِنِّينَة السّوداء رشيقَين سائغَين. يتدحرج البورتو في قاع خليجٍ مظلمٍ، رافعاً رأسَه بغطرسةِ النبلاءِ. نُبْلٌ إكليروسي، متقشِّف، ورغم ذلك مكلَّلٌ بالذَّهب. لكنْ، في الكأس، لا تبقى إلَّا فكرةُ السّواد. سوادٌ عقيقيٌّ أغمقَ من

الياقوت؛ إنّها صهارةُ حِمَمٍ ناعمةٌ، تعتملُ فيها حكايات السّكاكين، وشموسُ الانتقام، وتهديداتُ الدَّيرِ تحتَ حدِّ الخنجر. أجل، كلُّ هذا العنفِ يصطخبُ في شراب البورتو، لكنّه عنفٌ وسنانُ، عنفٌ تُنوِّمُه طقوسُ الكأسِ الصّغيرة، وحكمةُ الرّشفةِ الخجولِ. أشعَّةُ شمسٍ مخبوزة، بروقٌ مكتومةٌ. نكهةٌ منحرفةٌ من فاكهةٍ باهتةٍ غارَ فيها الفيضُ والألقُ. مع كلِّ رشفة، ترخي العنان للبورتو يصعدُ إلى نبعٍ حارٍّ. إنّها لذةٌ معكوسة، تينعُ في غير أوانِها، حين تصبح الرّصانة خادعةً. مع كلِّ لعقة حمراءَ وسوداءَ، يرتفع المخملُ الثقيل، أعلى فأعلى. كلُّ رشفةٍ كذبةٌ.

رائحة التُّفَّاح

تلج إلى القبو. وفوراً، تكون هي أوَّل ما يستولي عليكَ. إنّ التفَّاحات هنا، موضوعة على الرّفوف - صناديق مقلوبة. لم تكن ببالكَ. لم تكن لديكَ أدنى رغبة في الاستسلام إلى مثل هذا الشعور الغامض يغمركَ. لكنْ، ما باليد حيلة. رائحةُ التّفَّاح طوفانٌ. كيف أمكنكَ أن تعيش فترةً طويلة بدون هذه الطفولة الحلوة اللاذعة؟

لا بدَّ أن تكون الثمرات الذاويةُ لذيذةً، لا سيَّما مع هذا الجفاف الزائف، حيث يبدو أنّ النّكهة المسكَّرة قد تسلَّلت إلى كلِّ غصن. ومع ذلك، لا رغبة لكَ في أكلها. وفي المقام الأوَّل، أنتَ لا ترغبُ في أن تتحوَّل قوَّةُ الرائحةِ العائمةُ المبهمة إلى طعمٍ واضحِ الملامح. هل نقول إنّها رائحةٌ طيِّبة، رائحةٌ نفَّاذة؟ كلَّا. إنّها أبعد من ذلك ... رائحة جُوَّانيةٌ، رائحةُ ذاتٍ أفضلَ. فيها انطوى خريفُ أيَّامِ المدرسة. على الورقةِ تخطُّ بالحبر الحروفَ مغلقةً ومفتوحةً. المطر ينهمر على النوافذ، وفي الأفق يلوح مساءٌ طويل.

لكن رائحة التفَّاح هي أكثر من ماضٍ. إنّكَ تستحضرُ الماضي بباعثٍ من الحجم والكثافة، بباعثٍ من ذكرى قبوٍ قذرٍ، عليَّةٍ مظلمةٍ. لكنّها ذكرى تعاشُ الآن، تحياها واقفاً. خلفكَ العشبُ الطويل ورطوبة البستان. وأمامكَ ما يشبه أنفاسَ هواءٍ دافئةٍ تهبُّ في الظلِّ. لقد تلوَّنت الرائحة بلطائف اللّونَين البنِّيِّ والأحمر كلِّها، مع شيءٍ من الحموضة

الخضراء. لقد قَطَّرت الرائحةُ نعومَةَ الجلدِ، وخشونَتَه الدقيقةَ. الشفاهُ جفَّت، لكنَّكَ تعلم مُسبَّقاً أنّ هذا العطش لا يرتوي. لن يحدث شيء إذا قضمتَ نسيجاً أبيض. ينبغي أن تُصبِحَ أنتَ شهرَ أكتوبر، أن تصبحَ أرضاً ترابيَّةً، قوسَ قبو، مطراً، انتظاراً. إنّ رائحةَ التُّفَّاح مؤلمة. إنّها رائحة حياة أقوى، رائحةُ بطءٍ لم تعد تستحقُّه.

كرواسان الرّصيف

أنتَ أوَّل مَن استيقظ. بحذر الهنديِّ الأحمر الذي يترصَّد العدوَّ ترتدي ملابسكَ، وتتسلَّل من غرفة إلى أخرى. تفتح باب المدخل وتغلقُه بدقَّة السَّاعاتي. وها قد قضيَ الأمرُ. أنتَ الآن في الخارج، في زرقة الصباح تحيطُها غلالةٌ ورديّة: مزيجٌ لا طعم له لولا أنّ البردَ هنا ليُطهِّرَ كلَّ شيء. في كلِّ زفرةٍ تزفرها تنفُثُ سحابةً من دخان: ها أنتَ ذا، موجودٌ، حرّاً وخفيفاً، على رصيف الصباح الباكر. فإنْ كان المخبزُ بعيداً بعض الشّيء، خيرٌ وبركة! تمضي واضعاً يدَيكَ في جيبيكَ، على شاكلة كيرواك، أنتَ في طليعة كلِّ شيءٍ: كلّ خطوةٍ احتفالٌ. تُفاجِئ نفسكَ سائراً على حافَّة الرّصيف، كما اعتدتَ أن تفعل أيَّام طفولتكَ، كما لو كانت الحاشيةُ هي ما يهمُّ؛ حافَّةُ الأشياء. إنَّه زمنٌ خالصٌ، هذا الذي نختلسُه من النّهار، بينما يغطُّ الآخرون جميعاً في النّوم.

كلُّهم تقريباً. هناك، يلزم بالطبع، ضوءُ المخبز الدافئ - هو في الواقع ضوء نيون، لكنَّ فكرةَ الدفء تضفي عليه وهجاً كهرمانياً. تحتاج فقط إلى كمِّيَّة مناسبةٍ من الضباب على الزّجاج حين تقتربُ منه، وتلك التحية المبهجة «بونجور!» التي تخصُّ بها الخبَّازةُ أوائلَ الزبائن - تواطؤُ الفجر.

- خمس كرواسونات، وخبز باغيت مقولَبٌ غير مطبوخٍ أكثر من اللازم!

في الجانب الخلفيِّ من المحلِّ، يظهر الخبَّاز في سترته الملطَّخة بالدّقيق، ويحييكَ كما يُحيَّا البواسلُ ساعةَ المعركة.

ثمَّ تُلفي نفسكَ مرَّة أخرى في الشارع. واضحٌ: لن تكون طريق المشيِ إلى المنزل كطريق المشي منه. فالرّصيف أقلُّ حُرِّيَّةً، وأنتَ قد اتَّخذتَ شيئاً من مظهر البورجوازيّ، إذ تمسك قطعة الخبز الفرنسيّ تحت مَرفِقكَ، وبيدكَ الأخرى تحمل علبة الكرواسون. ثمَّ تتناول كرواسون من الكيس. العجينة دافئةٌ، تكاد تكون ليِّنة. هذه الملذَّة الصغيرة في البرد، في أثناء المشي: كأنّما الصّباح الشتويُّ يتحوَّل إلى كرواسون من الداخل، كأنّكَ أنتَ نفسُكَ تصير فُرناً وبيتاً وملجأً. تتقدَّم بمزيدٍ من البطء، متشرِّباً الشُّقرةَ، لكي تعبر بها الأزرقَ والرماديَّ والورديَّ الذي ينطفئ. النّهارُ يطلع، والزُّبدةُ قد اغتنمتَها.

صوت الدّينامو

ذاك التّماسُّ البسيطُ الذي يكبح ويخرخر على العجلة. لقد مضى زمنٌ طويل منذ أن ركبتَ الدرّاجة في ساعةٍ مماثلة: ساعة الغسق! مرَّت سيّارةٌ، فضغط السّائق على بوقِها، فاستعدتَ تلك الحركة القديمة: أن تميل بجسدكَ إلى الخلف، يدكَ اليسرى متدلِّيةٌ، وبيمناكَ تضغط على زرِّ المرور، - بعيداً عن الضغط - بعيداً عن شُعَع العجلة بالطبع. أيّ سعادةٍ هي في إطلاق العنان للآلة الشّبيهة بقِنِّينَة حليبٍ صغيرة، تتَّكئ منقادةً على العجلة. وعلى الفور ينطلق من المصباح الأمامي الشعاعُ الأصفرُ الرفيعُ، فيقلب حُلْكَة اللّيل إلى زُرقةٍ. لكنّ ما يهمُّ هو الموسيقى. إذ تخال أنّ الصوتَ الخافت المطَمئِن «فرررر فرررر» لم يتوقَّف قطُّ. ويصير الرّاكبُ محطَّةَ طاقةٍ لنفسه، محطَّةً ذات دوّاسات مستديرة. وليس ينتابكَ انطباعٌ شبيه بانطباع احتكاكِ واقي الطّين في أثناء سير العجلة. ذاك أنّ الالتحام المطّاطيَّ بين إطار العجلة وغطاء الدينامو المحزوز، لا يوحي بإحساس العائقِ بقدر ما يوحي بإحساس الخدر الصحّيِّ. إنّ الرّيف المحيط بكَ يغفو مُهدهَداً على وقع الاهتزازات المنتظمة.

فتصعدُ إذّاك أصباحُ الطّفولة، والطريقُ إلى المدرسة، مع ذكرى الأصابع المتجمِّدة. وأماسي الصّيف، أيّامَ كنتَ تقصد إلى المزرعة المجاورة لشراء الحليب – وتقابل الذّكرى قعقعةُ العلبة المعدنيّة التي

تتراقص سلسلتها الصغيرة. والأفجُر في الطريق إلى صيد السمك، وقد ولّيتَ ظَهركَ إلى المنزل النّائم، ترافقكَ قعقعةُ صِنَارَات قصب الخَيْزُرَان الخفيفةِ. إنّ الدينامو يفتح الطريقَ إلى حُرِّيَّةٍ ينبغي تذوُّقُها دائماً في غبش الرّمادي، قبل أن يسودَ البنفسجيُّ تماماً. لقد وُجد الدينامو لتسير به الهوينا، محرِّكاً الدّوَّاسات في لطفٍ ودَعَة، مصغِياً/متنبِّهاً إلى سَيْرِ الآليةِ الهوائية. على خلفيّة الدينامو، تتنقَّل بإيقاعِ محرِّكٍ يعمل بقوَّة الرياح، طاحونةٍ تطحنُ طُرُقات الذاكرة بهواء اللاشيء[1].

1) ترجمة حرفيّة، والمعنى المجازي "غير آبهة".

الاستنشاق

آه! أمراضُ الطفولة البسيطةُ التي تمنحكَ بضعة أيَّام للنقاهة، وقراءة قصص باغز باني في السرير! وا أسفاً، كلَّما تقدَّمَت بكَ السنُّ صارت ملذَّاتُ المرض نادرة. ثمَّ بالطبع متعة الشّراب، شراب الكروغ. لحظةٌ ثمينة تلك التي تشرب فيها جرعةً كبيرةً من كروغ قويّ، وأنتَ تتظاهر بالتذمُّر. لكنْ، قد تكون لذَّةُ الاستنشاق أدقَّ وأرهف.

إنّ الاستنشاقَ عمليَّةٌ لا تستطيع أن تحمل نفسكَ على القيام بها فوراً. لا، بل إنّ الاستنشاق يبدو مُرَّاً، وساماً سُمِّيَّةً مبهمَة. إنّكَ تماهي بينه وبين الغرغرة التي تترك في الفم طعماً نحاسياً باهتاً. ولكنّكَ، في نهاية المطاف، تشعر بألمٍ شديد، ورأسكَ ثقيل ودائخ. ثمَّ فجأةً ينتابكَ انطباع بأنّ تحسُّناً بسيطاً سيأتيكَ من المطبخ. أجَل، إنّ شيئاً من البساطة الوظيفية، جهةَ الموقد، الحوض، الثلَّاجة، قد يحمل إليكَ بعض الرّاحة. قارورة الفوميجالين موضوعةٌ على الرّفّ، إلى جانب أكياس الزيزفون والشاي. الملصقُ على القارورة: وجهٌ على الطّراز القديم يرشفُ، في سعادة، شعاعاً من دخانٍ أبيضَ ثلجيٍّ: ينتابكَ الانطباع بأنّكَ تُحيي طقوساً عفا عنها الزّمان.

تسخِّن قليلاً من الماء. في ما مضى من الزّمان، كنتَ تستعين بمِنشاق (جهاز استنشاق) بلاستيكيّ، ينفصل نصفَين، فيخلِّفُ تحت العينَين هالاتٍ سوداءَ. وإن بعَّدتَ كتابَكَ، تستطيع أن تقرأ وأنتَ

تستعملُه. لكنّ الجهاز اختفى، لم يعد يُستعمَلُ، وهذا أفضل. يكفيكَ أن تصبَّ الماء المغليَّ في وعاءٍ، وتضيف إليه ملعقةً من هذا السائل الذهبيِّ الشفَّاف الذي ما إن ينزل في الماء حتَّى تنتشر سحابةٌ مخضرَّةٌ، لونُها لونُ البازلّاء الميبَّسة. تغطّي رأسَكَ بمنشفة. وها قد تمَّ كلُّ شيء. تنطلقُ الرحلة، وتبتلعُكَ السَّحابة. من الخارج، تتَّخذ تماماً مظهرَ الشّخص الذي يعالج نفسَه على نحوٍ سليمٍ، متوسِّلاً بطاقةٍ آليةٍ مطيعة. أمَّا مِن تحتُ، فقصَّةٌ أخرى. يبدأ يستولي عليكَ ضربٌ من الخدر الدماغي، وما تلبث أن تغرق في ذهول ملتبس. يتصاعد العرقُ إلى الصدغَين. لكنّ الدّاخلَ هو ملعبُ كلِّ شيءٍ. تنفُّسٌ منتظمٌ وعميق يبدو مقيَّضاً لتحرير الجيوب الأنفية، تحريراً تامَّاً، يصاحبُ قوَّةَ الفوميجالين المنحرفة. وأنتَ، في أثناء ذلك كلِّه، ساكنٌ، تهيمُ بلذَّة، وحركاتٍ برمائيَّة، في الأدغال الشاحبة للسمِّ الأخضر اللّطيف. يأتي الماء من الدخان، والدخانُ من الماء. وأنتَ تتمطَّى في الغياب، ثمَّ ما يلبث أن يستولي عليكَ السُّبات. قريباً، بعيداً، توافيكَ من عالمٍ بسيطٍ أصواتُ طَعامٍ يُحضَّرُ. لكنّكَ، غارقاً في بخار الحُمّى الجوَّانيَّة، لم تعُد ترغب في رفع الحجاب.

بوسعنا تقريباً
أن نتناول الطّعام في الخارج

إنّ أهمَّ ما في الجملة هي «تقريباً»، وصيغة الشّرط. في الوهلة الأولى، يبدو الأمر جنوناً. فنحن في بداية شهر مارس، والأسبوع لم يكن إلَّا مطراً، وريحاً وصقيعاً. ثمَّ ها قد انقلب كلُّ شيء. فمنذ الصباح، أشرقت الشمسُ، بشدَّةٍ كامدة، وقوَّة هادئة. الغداء جاهزٌ، والمائدة منصوبة. لكنْ، حتَّى داخلَ المنزل تغيَّر كلُّ شيء. النافذة مواربةٌ، ومن الخارج تنسابُ الغمغمةُ، وفي الأجواء يطفو شيءٌ من خفَّة.

«بوسعنا تقريباً أن نتناول الطّعام في الخارج.». تُنطَقُ العبارةُ دائماً في اللحظة نفسها. قُبيل أن نجلس إلى المائدة، عندما يبدو الأوان قد فاتَ لتغيير الطَّقس، عندما تكون الخضروات النِّيْئَة قد وُضعَت على مفرش. هل فات الأوان؟ إنّ المستقبلَ هو ما ستصنعه. قد يستولي عليكَ من الجنون ما يكفي لتُهرَع إلى الخارج، فتمسح طاولة الحديقة بخرقة، مسحاً محموماً، وتفرِّق الكنزات. وتوجِّه الجميعَ وهم يساعدون في مرحٍ محرجٍ وحركاتٍ متناقضة. أو لكَ أن تستسلمَ لتناول الطعامِ في الدفء - فالكراسي نديّةٌ جدَّاً، والعشب طويلٌ أكثر ممَّا ينبغي ...

لكنْ، فيمَ يهمُّ ذلك كلّه! إنّ ما يهمُّ هو لحظةُ تلك الجملة الموجزة. بوسعكَ تقريباً ... ما أطيب الحياة بصيغة الشّرط، على شاكلة ألعاب الأطفال، فيما مضى: «يبدو كأنّكَ ستكون ...» حياةٌ مخترعَةٌ، تُحبِطُ

اليقينَ. حياة تكاد تكون: في متناول اليدِ، هذه النّضَارة. نزرٌ من خيال، منذورٌ لتذوُّقِ الطُّقوس المنزلية منقولةً. نفحةٌ من جنون عاقلٍ يغيِّر كلَّ شيءٍ دون أن يغيِّر شيئاً ...

أحياناً نقول: «كدنا تقريباً أن.» وتلك هي العبارةُ الحزينةُ، عبارةُ البالغينَ الذين لم يبقَ لهم إلَّا الحنين إلى الماضي، ساكناً على علبة باندورا. لكنْ، ثمَّة أيَّامٌ ننتشلُ فيها النّهار في لحظة الاحتمال العائمة، في اللّحظة الهشَّة، لحظة التردُّدِ الصّادقِ، دون أن نوجِّه مُسبَّقاً عاتقَ الميزان. ثمَّة أيَّامٌ بوسعنا فيها تقريباً.

أن تذهب إلى أشجار العلّيق

تلك نزهةٌ ينبغي أن تقوم بها مع أصدقاء قدامى، في نهاية الصّيف. العودةُ إلى الدّراسة على الأبواب، خلال أيَّامٍ قليلةٍ يعادُ كلُّ شيءٍ على بدء؛ لا بأس، إذن، من أن تحظى بهذه النزهة الأخيرة التي تفوح برائحة سبتمبر. لم نحتج إلى أن ندعو بعضنا بعضاً لتناول الغداء. مجرَّد اتّصالٍ هاتفيٍّ، بداية ظهيرة يوم الأحد:

- هل تأتونَ لنقطف بعض التوت الأسود؟

- عجيب، كنَّا على وشك أن نقترح عليكم ذلك!

نعود دائماً إلى المكان نفسه، على طول الطّريق الضيِّقة، عند حافَّة الغابة. كلَّ عام، تزدادُ كثافة العلّيق، فيُصبح أشدَّ سمكاً واستعصاءً. وتكتسي الأوراق لوناً أخضر باهتاً، عميقاً، وتصطبغُ السيقانُ والأشواكُ بأحمر نبيذيٍّ يشبه ألوانَ الورق الذي نغلِّف به الكُتُب والدفاتر.

لقد تزوَّد كلُّ شخص بعلبة بلاستيكٍ تحمي التّوت من أن ينسحق. نشرع في القطف، بلا إفراطٍ في الهياج أو في الانضباط. حسبُنا برطمانان أو ثلاثة من المربىَّ، نتلذَّذ بها في وجبات الإفطار الخريفية. لكنّ أفضلَ متعةٍ هي الشّربات المثلَّجة. شربات توت أسود نتناولها مساء اليوم نفسِه؛ حلاوةٌ مثلَّجة، ترقد فيها كلُّ أشعَّة الشمس الأخيرةِ المشبعةِ بنضارةٍ داكنة.

إنّ توت العلّيق صغيرٌ، أسود برّاق. ولكنّكَ تفضّل، في أثناء عمليّة القطف، تذوُّق تلك الثمار التي ما تزال تحتوي على بعض البذور الحمراء، ذات المذاق الحمضيّ. سرعان ما تتلطّخ اليدان باللّون الأسود. تمسحُهما، ما استطعتَ، على العشب الأشقر. عند حافّة الغابة، يصطبغُ السرخس بالصُّهبة، ويتساقط حُزماً منحنيةٍ على لآلئ الخلنج البنفسجية. نتحدَّث عن كلِّ شيء وفي لا شيء. يصير الأطفال جادِّين، يتحدَّثون عن خشيتهم أو رغبتهم في أن يكونوا تلاميذَ لهذا المعلِّم أو ذاك. لأنّ الأطفال، في نهاية المطاف، هم مَن يقودون العودة إلى الدّراسة، ولدربِ العلّيق نفسُ مذاق المدرسة - الطريق لطيفةٌ، بالكاد تتعرَّج: طريقٌ لتبادل الأحاديث. بين زَخّتين من مطرٍ، يأتي الضّوءُ السّاطع محتفظاً بدفئه. لقد قطفتَ التوتَ الأسود، لقد قطفتَ الصّيفَ. وفي المنعطف، عند أشجار البندق، تنزلق صوبَ الخريف.

جُرعة البيرة الأولى

إنّها الوحيدة التي يُعتدُّ بها. أمَّا الأخرياتُ، الجرعاتُ التي تتوالى أطوَلَ فأطوَل، وأهدأ فأهدأ، فلا تخلِّفُ إلَّا ارتخاءً فاتراً، وفرةً ضائعةً. ربمَّا، تستعيد الجرعةُ الأخيرةُ، مع ما تنطوي عليه من خيبة أملِ الانتهاء، ما يشبه القوَّة ...

لكن الجرعة الأولى! أقُلت جرعة؟ يبدأ الأمر قبل التجرُّع. ما إن يمسّ الشّفتَين ذاك الذّهبُ المزبد؛ انتعاشٌ يزدادُ بالرّغوة قوَّةً، ثمَّ ببطءٍ على الحنك تخمد سعادةُ المَرَارة. لكَم تبدو طويلةً الجرعة الأولى! تشربُها فوراً، بشراهة تدَّعي زيفاً أنّها غريزيّةٌ. الحقُّ، أنّ كلّ شيءٍ مدوَّنٌ: الكمِّيَّة، لا ينبغي أن تكون أكثر من اللازم، ولا أقلّ، ممَّا يجعلها بدايةً مثالية؛ الشّعور الفوريُّ بالرّاحة، تضبطُ إيقاعَهُ تنهيدةٌ أو نقرة على اللسان أو صمت يضاهيهما تعبيراً؛ الإحساس الخادع بلذَّةٍ تنفتحُ على المطلق ... وفي الآن نفسه، تكون قد أحطتَ علماً. الأفضلُ انقضى. تضع كأسكَ، بل وتُبعدها قليلاً عن مربّع الشراب الصغير. تتذوَّق اللونَ، لون العسل الزّائف، الشمس الباردة. عبر طقوس كاملة من الحكمة والانتظار، تصبو إلى أن تتحكَّم في المعجزة التي للتوِّ حدثت وتلاشت. تقرأ بارتياح على جانب الكوب الاسمَ الدقيقَ للبيرة التي طلبتَها. لكن الحاوية والمحتوى يتبادلان السؤال، ويتجاوبان في الهاوية، لا شيءَ يتضاعفُ .. بودِّكَ لو تحتفظ بسرِّ الذهب الخالص، وتحبسَه في صيَغٍ. بيد أنّ الخيميائي

المحبَطَ، الجالسَ إلى طاولته البيضاء الصغيرة، وقد تناثرت عليها أشعَّةُ الشمس، لا يستنقذُ غيرَ المظاهر، ويمضي في الشّرب، مزيداً من البيرة فمزيداً، وقليلاً من البهجةِ فأقلَّ. إنّها سعادة مريرة: تَشربُ لتنسَى الرشفة الأولى.

الطّريق السيَّارُ ليلاً

غريبةٌ هيَ السيَّارة: إنّها، في آنٍ، كمنزل صغير مألوف، وكمركبة فضائيّة. طوعُ اليدِ سكاكر النعناع والعرقسوس. ولكنْ، على لوحِ العدَّادات، تلكَ الأعمدة الفسفورية: الأخضر الكهربائي والأزرق البارد والبرتقالي الباهت. لستَ حتَّى تحتاجُ الرّاديو - ربَّما في وقت لاحقٍ، عند منتصف الليل، لكي تسمعَ الأخبار. يُستحسن أن تنقاد إلى هذا الفضاء. بالطبع، يبدو كلُّ شيء طيِّعاً، كلُّ شيء ينقاد: ذراعُ السّرعة، والمقوَدُ، ونقرةٌ على ممسحة الزجاج الأمامي، وضغطةٌ خفيفة على منظمِّ النوافذ. لكنْ، في الآن نفسه، تقودكَ المقصورةُ وتفرِض سلطتَها. في هذا الصمت المبطَّن بالعزلة، تكون أشبه شيءٍ بوضعكَ في مقعد السينما - أحداثُ الفيلم تجري أمامكَ، ويبدو هذا هو الأساس، لكنَّ التحليق غير المحسوس للجسد يعطي شعوراً بتبعيَّةٍ متواطأ عليها، تبعيَّة هي أيضاً مهمَّةٌ.

في الخارج، في ضوء المصابيح الأمامية، بين السّكَّة على اليمين والشجيرات على اليسار، الهدوء نفسه. لكنْ، جرِّب أن تفتح النافذة بغتةً، وسيصفعكَ الخارجُ، فينتشلكَ من شبه النعاس الذي أخذ يستولي عليكَ: مجدَّداً تبرزُ السرعة الجامحة. في الخارج، مائة وعشرون كيلومتراً في الساعة، لها الكثافةُ المضغوطة لقنبلة فولاذية ملقاة بين سِكَّتَين.

تعبُر اللّيلَ. اللافتاتُ الإرشادية - فوتوروسكوب، بواتييه-نور، بواتييه-

سود، المخرج التالي ماريه بواتيفان - تحمل أسماءَ فرنسيَّة جدَّاً، أسماء تفوح بدروس الجغرافيا. لكنّها نكهة مجرَّدة، واقع أعمى تمحوه بمَكرٍ خَمولٍ: تلك الفرنسا الافتراضية التي نلغيها، قدمٌ على دوَّاسةِ البنزين وعينٌ واحدة على عداد الكيلومترات، إنّه درسٌ آخر لن تتعلَّمه.

الكافتيريا على بُعد عشرة كيلومترات. ستتوقَّف. وقد بدأت تظهر بالفعل من بعيد ملامح كاتدرائية الضوء المسطَّحة، ثمَّ أخذَت تزداد اتِّساعاً فاتِّساعاً، كالميناء الذي يتقدَّم نحوكَ عند نهاية رحلة في المركب. وقود سوبر + 98. الريح منعشة. ذاك الصّوتُ من الصنبور الميكانيكي، وهمهمة العدَّاد. ثمَّ الكافتيريا، كثافةٌ لزجةٌ مبهمة، كما هو الحالُ في كلِّ المحطَّات، في كلِّ الملاذات الليلية. إسبريسو - سكَّر زيادة. المهمُّ هو فكرة القهوة، لا طعمُها. دفءٌ، مرارةٌ. بضع خطوات خرقاء، نظرةٌ عائمةٌ مبهمة، تقاطعٌ مع بعض الهيئات، لكنْ، لا كلمات. ثمَّ تعود إلى المركبة، إلى بَدنِ السفينة الذي يحتويكَ كقالبٍ مناسب تماماً. لقد انصرفَ النُّعاسُ. لا بأس، حسنٌ إن كان الفجرُ ما يزال بعيداً.

في قطارٍ عتيق

ليس على متن القطار فائق السّرعة، كلَّا! ولا على متن قطارٍ توربينيّ، ولا حتَّى في قطار الكوراي. بل في قطارٍ من تلك القطارات القديمة ذات اللون الخاكيّ التي تفوح منها رائحة الستّينيات. كنتَ تتوقَّع مقصورةً طوليّةً تُعقَّم تعقيماً وظيفياً، وباباً منزلقاً يُفتَح أوتوماتيكيّاً. ولكنّ ما وجدتَه على هذا الخطّ المألوف، هو قطارٌ قديمٌ، عفا عنه الزّمان وأُعيد إلى الخدمة في ذلك اليوم. لماذا؟ لن تعرف.

تتقدَّم في الممرِّ. الحركةُ الأولى التي تغيِّرُ كلَّ شيءٍ هي فتحُ بابِ المقصورة. في هبّةٍ من حرارةٍ كهربائية رخوةٍ، عنوةً تقتحِمُ حميميَّةً، حميميَّةً على قدرٍ من التحلُّل، على قدرٍ من التحفُّظ: تمسحُك الأنظارُ من رأسكَ إلى قدمَيكَ. لنضرب صفحاً عن تخفِّي الهويّة الذي تضمنه المقصورات الأحادية! سيكون من قبيل الهمجيّة ألَّا تلقي التحيّة، وألَّا تستأذن في الجلوس. لا، بل يلزم شيءٌ من الكآبة القلقة التي هي جزءٌ من الطّقوس. إنّها بمثابة «افتح، يا سمسم». بعد أن تطلب شرف الدخول إلى صالون العائلة، يتّم قبولكَ بموافقة تبدو كالقرقرة.

وابتداءً من تلك اللّحظة يصير بوسعكَ أن تلوذ بزاوية الممرِّ وأن تفرد ساقَيكَ. تخضع نظراتُ كلِّ راكبٍ إلى حركة جمباز غريزيّةٍ ومعقَّدة: قد تحطُّ على الأرضية السّوداء المطَّاطيَّة، بين أقدام الركَّاب؛ وقد تتوقَّف طويلاً على الوجوه مرحِّبةً. أمَّا الوضعيات المتوسِّطة - وهي الأكثر إثارة

للاهتمام - فينبغي القيام بها خلسة. لكنْ، لا أحد ينخدع: حدَّة العين تنفي حياءَ مسارها. يبدو أنّ الهروبَ صوب المنظر الطبيعي في محلِّه، مع توقُّفٍ عند منافض السجائر المرصَّعة بالرصاص المنقوش عليها S.N.C.F.[1] ولكنْ، في الأعلى، بالقرب من المرآة المسمّرة، تعود العين لتحطَّ حيث تشاءُ، آمنةً مطمئنَّة. صورة بلدة موستييه-سان-ماري (جبال الألب العليا) بالأبيض والأسود، المبروَزَةُ في إطارٍ مَعدِنيٍّ صغيرٍ، لا توحي بأيِّ رغبة في الهروب. إنّها تُوقِظ بالأحرى أسلوبَ حياةٍ قديماً، حياةٍ تناسبُ المقصورات، والوجبات الخفيفة. تكاد تشمُّ فيها رائحةَ النقانق المقطَّعة بسكِّين أوبينل، وتكاد تشعر بمَلمَس المناديل ذات المربَّعات الحمراء، وهي تُبسَطُ على الموائد. تعود بكَ الذاكرة إلى الزّمن الذي كان السَّفر فيه حَدثاً مميَّزاً، لأيّام كانوا ينتظرونكَ على رصيف المحطَّة، بالأسئلة الرّسمية:

- بلى، كانت الرّحلة جيِّدة. في المقصورة، زوجان شابَّان، وجنديَّان، وشيخٌ نزل في أوبريه.

---

1) الشّركة الوطنية للسّكة الحديد.

طواف فرنسا

طوافُ فرنسا للدرَّاجات الهوائية، يعني الصّيف. الصّيف الذي لا يمكن أن ينتهي، حرارةُ يوليو. في المنازل تُسدل الستائر، وتصبح الحياة أبطأ، ويتراقص الغبارُ في ضوء الشمس. فأن تحبس نفسكَ عندما تكون السّماء على هذه الدّرجة من الصّفاء والزّرقة، يبدو أمراً غير لائق. أن تجلس أمام جهاز التلفاز، حين تكون الغابات عميقة، وحين تعِدُك المياهُ بالنضارة والنّور! ومع ذلك يحقّ لكَ أن تكسر القاعدة إن كنتَ ستجلس لمتابعة طواف فرنسا. يتعلّق الأمرُ بشعيرةٍ مبجَّلةٍ، تُخرجكَ من دائرة كسلِ البهيمة وخمولِ النبات. ثمَّ إنّكَ لستَ تشاهد طوافَ فرنسا، بل طوافات فرنسا. أجل، في كلِّ صورةٍ من صور الدرَّاجات المندفعة على امتداد طُرق أوفيرني أو بيغور، تَرتسمُ، كعلامةٍ مائيّةٍ في الخلفيّة، كلُّ درَّاجات الطّوافات الماضية. وتحت القمصان الفسفورية المتلألئة، تُرى جميعُ القمصان الصوفيّة القديمة - قميص أنكيتييه الأصفر الذي طُرِّزت عليه بالكاد علامة شركة هيليت؛ وقميصُ روجيه ريفيير الأزرقُ والأبيضُ والأحمرُ بكُمَّيه القصيرَين جدَّاً؛ وقميصُ كلٍّ من ريمون بوليدور وميرسييه-بي بي-هوتشينسون، الأرجوانيُ والأصفر. من خلال العجلات قد تبصر الأنابيب المتقاطعة على أكتاف لابيبي أو رُنيه فييتو. وترتسِمُ حصَى فوركلاز الموحشةُ على خلفيّة أرضيّة ألبِ دويز المبلَّطةِ بالقارِ والغاصَّةِ بالخلق.

ودائماً ما يكون ثمَّة شخصٌ ليقول:

- ما يعجبني أنا في الطّواف، هو المناظر!

الحال أنّكَ تعبر فرنسا أخرى، فرنسا محمومة واحتفالية، فرنسا يتدفَّق فيها النّاس من كلِّ سهلٍ وبلدةٍ وفجّ. يجري التناضحُ بين البشر والديكور في حماسةٍ مفعمةٍ بالبراءة، وقد يفرط بعضُ المتهوّرين في الحماسة. ولكنْ، على خلفيَّة جاليبييه الصّخرية وخلفيَّة تورماليه الضبابيَّة، لا بأس بشيءٍ من العصيان الفرنسيّ، فهو لا يعمل إلَّا على إبراز البُعد الأسطوري للأبطال.

حتَّى مراحلُ الطّواف التي تجري على طرقاتٍ منبسطةٍ تحظى بالمتابعة، وإن كانت أقلّ حسماً في مسار السّباق. يكون الشعور بمتابعة الطّواف أكثر كثافةً وصلابةً، ويجعل القافلة الإعلانية أكثر جدارةً بالاهتمام. لا أهميّة حقاً لمآلِ التّرتيب العامِّ. الفكرة هي ما يهمُّ: أنّ تتشاركَ لحظةً مع فرنسا كلِّها، فرنسا الشمسِ والحصاد. على شاشة التلفزيون، تتشابَه الأصيافُ، ولانقضاضِ الدّرَّاجاتِ الأسرَعِ طعمُ الماء بالنّعناع.

بانانا سبليت

لستَ تتناوله البتَّة. إنّه فظيع، لفرط ما هو مسكَّرٌ يكاد يكون بلا طعمٍ أو لون. لكنْ، ما علينا. لقد بالغتَ مؤخّراً في استخدام الألوان الأحادية المكرَّرة، فأفرطتَ في تذوُّق المرارة بلطائفها وتدرُّجاتها. ودفعتَ بالألوان الخفيفة، المنفلتة، حتّى شارفتَ بها تخومَ الجزيرة الطّافية، وأوغلتَ في ترف الألوان الصيّفيّة المضبوطة حتّى وافيتَ كوب الفواكه الحمراء الأربعة[1]. لذا لن تتخطّى، لمرّةٍ، السّطرَ الذي يشير إلى البانانا سبليت على قائمة الطعام.

- وحضرتكَ؟

- بنانا سبيلت.

ليس من السّهل أن تطلب البانانا سبليت، أن تطلب جبل السّعادة المحض. يدوِّن النّادل طلبكَ بموضوعية مباليةٍ، ومع ذلك ما تزال تشعر بشيءٍ من حرج. ثمّة شيءٌ ما طفوليٌّ في هذه الرغبة الكاسحة التي لا تدعمها أيُّ أخلاقياتٍ غذائيَّة أو تحفُّظاتٍ جماليَّة. إنّ البانانا سبليت هي الشّراهة الصبيانيَّة والمستفزَّة، هي الشهيَّة الخامّ. حين يُحمَل إليك الصّحنُ، يحدِّق فيه الزبائن على الطاولات المجاورة، بعيونٍ مستهزئة. لأنّ البنانا سبليت تُقدَّم في صحن، أو في صينية واسعة فاضحة. على كلّ

---

1) الجزيرة الطّافية وكوب الفواكه الحمراء الأربعة كلاهما من أنواع التحلية.

مائدةٍ من موائد المطعم، لا تَرى سوى أوانٍ رهيفةً لحلوى عشّ اللّقلق، وضروباً من الكعك الصّغير الذي تُجمَع كثافتُه في طبقٍ رقيقٍ جدّاً. أمَّا البانانا سبليت، فتتمطّى: إنّها متعةٌ تسيح على الأرض. تكديسٌ مبهمٌ لقطع الموز على كراتٍ من الفانيليا والشوكولاتة لا يمنع السّطحَ من أن يسيح، وقد أُضيفت إليه جرعةٌ سخيَّةٌ من الكريمة المخفوقة.

آلاف النّاس، على هذه الأرض، يموتون جوعاً. تلك خاطرةٌ تستطيع أن تواجهها، على أبعد تقدير، حين تكون أمام كعكة شوكولاتة مُرَّة، لكنْ، ما العمل حين تُلفي نفسكَ أمام بانانا سبليت؟ ما إن توضع تلك الأعجوبةُ أمامكَ، حتَّى تشعر بأنّكَ لم تعد حقّاً جائعاً. لحسن الحظّ، يبدأ النّدم. النّدم الذي يمكّنكَ من تأتي على كلِّ تلك الحلاوة الواهنة. يأتيكَ الندم المخلِّص ليسندَ الشهيّةَ المتذبذبة. مثلما كنتَ طفلاً تسرقُ المربىَّ من الخزانة، ها أنتَ ذا تختلس من عالمِ الكبار متعةً غير لائقةٍ، متعةً تحرِّمُها القواعدُ حتَّى آخر آخر ملعقة - إنّ البنانا سبليت خطيئةٌ.

مدعوٌّ فجأةً

لم يكن الأمر متوقَّعاً حقّاً. كانت ما تزال لديكَ أشغالٌ للغد. إنّما فقط مررتَ في زيارةٍ خاطفةٍ، تسألُ عن أمر، وهوَ ذا:

- هل تتعشّى معنا؟ لقمةً ممّا حضر!

ما ألذَّها من لحظاتٍ تلك اللّحظات القليلة التي نشعر خلالَها بأنّ الدّعوةَ قادمةٌ! بالطّبع تستلذُّ فكرةَ أن تمدَّ اللّحظةَ الطيِّبة، لكنْ، أيضاً خاطرةَ أن تزعزِع نظامَ الوقت. فقد كان النّهار متوقَّعاً جدّاً؛ حتّى إنّ المساء كان يطلُّ مؤكَّداً ومبرمَجاً على نحوٍ مفرطٍ في الدقَّة. ثمَّ ها عمليَّةُ تجميلٍ كبرى، في ثانيتَين، ولكَ أن تقلبَ مجرى الأحداث من البداية. وبالطّبع سوف تستسلم للدّعوة.

في هذه الحالات، لا مجال للتّرتيبات الصّارمة، فلن تُدعى إلى الجلوس على كنبةٍ في الصّالون لاحتساء مشروبٍ فاتحٍ للشّهيّة. كلّا، بل سيتظافر الحديثُ في المطبخ - هاك، لو سمحتَ ساعدني في تقشير البطاطا: حاملاً في يدكَ سكّين تقشير البطاطا، تقول أشياءَ شديدة العمق والتّلقائيّة. وفي أثناء ذلك تقضِم فجلةً. حين تُدعى للعشاء فجأةً، ترتفع تقريباً إلى مصافِّ العائلة، تصير تقريباً من أهل المنزل. لم تعد تنقُّلاتكَ محدودة. مسموح لكَ بأن تلج إلى الأركان، إلى الدّواليب. أين تودِعونَ الخردل؟ ثمَّة روائح بصلٍ وكزبر تبدو طالعةً

من الأزمنة الخوالي، من أُلفةٍ بعيدةٍ - ربَّما هي ألفة الأماسي التي كنتَ تُنجِزُ فيها واجباتكَ المدرسيّة على طاولة المطبخ؟

تزداد الفواصل بين الأحاديث. لا حاجة بكَ إلى كلِّ تلك الكلمات التي تسيل بلا توقُّف. لقد صار الآن أفضل ما في الحديث تلك السّواحلُ النّاعمة بين الكلمات. لا منغِّص. تقلِّب كتيِّباً، اخترتَه من المكتبة كما اتُّفق. ثمَّ ينطق صوتٌ: «أظنُّ أنّ كلَّ شيءٍ جاهز». وتعتذر عن المشروب فاتح الشهيّة - حقَّاً. قبل أن تتعشَّى، تجلس لتثرثر حول المائدة المنصوبة، واضعاً قدمَيك على عارضةِ مقعدِ القشِّ المرتفعة قليلاً. حين تُستضاف فجأةً تشعرُ بأنّكَ في أفضل حالٍ، حرٌّ، متخفِّفٌ من كلِّ التزام. تشعر كما لو كنتَ طفلاً متبنَّىً، كأنّكَ قطٌّ المنزل الأسودُ يحضنُه أفرادُ الأسرة على ركبِهم. الحياة ساكنةٌ لا تتحرَّك - فقد انقادَت هي أيضاً للدّعوة المفاجئة.

أن تقرأ على الشّاطئ

ليس من السّهل أن تقرأ على الشّاطئ. أن تقرأ مستلقياً على ظهرِكَ أمرٌ يكاد يكون مستحيلاً. الشّمس وهَّاجةٌ، لذا ينبغي أن تمسك بكتابكَ عند طرف يدَيكَ، مرفوعاً فوق وجهكَ. يروقكَ الأمر لدقائق، ثمَّ ما تلبث أن تستدير. على الجنب، مستنداً إلى المَرفِق، اليد على الصّدغ، والأخرى تمسك بالكتاب مفتوحاً، وتقلِّبُ صفحاته، وهذه أيضاً وضعيّةٌ غير مريحة. فتنتهي مممدَّداً على بطنكَ، ذراعاكَ معاً مثنيَّتَين أمامكَ. على الأرض مباشرةً، ثمّة دائماً شيءٌ من ريح. تتسلَّل بلّوراتُ الرّمل الضّئيلة إلى داخل الغلاف. على ورق كتاب الجيب الخفيف الرّماديّ تتراكم حبَّات الرمل ويخبو بريقُها، وتصبح طيَّ النسيان، فهي لا تعدو أن تكون وزناً زائداً ما تلبث أن تنثره بلا مبالاة بعد أن تقلب بضع صفحات. أمَّا حين يتعلَّق الأمر بالورق الثّقيل، ورق الطّبعات الأصليّة، الورق الأبيض المحبّب، فإنّ الرّمل يتسلّل. ينتشر على الخشونة القشدية، ويبرق هنا وهناك. يصير بمثابة ترقيمٍ إضافيّ، انفتاحِ فضاءٍ جديد.

موضوع الكتاب أيضاً مهمّ. تشعر برضاً كبير حين تلعب على التباين. كأن تقرأ مقطعاً من مذكّرات ليوطو، تحديداً حيث يستهزئُ بالأجساد المكوَّمة على شواطئ بروتاني. أن تقرأ في ظلِّ الصّبايا المزهرات، وتعيد الصّلة بعالم ساحليّ، عالمٍ من القبّعات والمظلّات، والتّحايا المقطّرة على الطّراز القديم. أن تغوص تحت الشّمس في مصائب أوليفير

تويست المطِيرة. أو تخبَّ على ظهر الخيل، على طريقة دارتانيان، في سكون يوليو الثقيل.

لكنْ، من الجيِّد أيضاً أن تشتغل ضمن اللّون نفسه: أن تجرَّ إلى ما لانهاية صحراءَ لوكليزيو، تسحبها إلى صحرائك؛ وإذّاك يتَّخذ الرّمل المتناثر على الصّفحات أسرارَ الطّوارق، يتَّخذ ظلالاً بطيئةً زرقاء.

وإذ تفرط في القراءة، باسطاً ذراعَيك أمامكَ، فإنّ الذّقن يغوص، والفم يشرب الشّاطئَ، وإذّاك تستقيم في وضعيَّتكَ، شابكاً ذراعَيكَ أمام صدركَ، ويدٌ واحدةٌ فقط تتسلَّل، بين فينة وأخرى، لكي تقلِّب الصّفحات وتعلِّمَها. وتلك وضعيّةٌ مراهِقةٌ، لماذا؟ إنّها تجرُّ القراءةَ إلى شساعةٍ على درجةٍ من الكآبة. إنّ كلَّ تلك الوضعيات المتعاقبة، كلَّ تلك المحاولات، كلَّ ذلك الإرهاق، وتلك اللّذائذ غير المنتظمة، هي القراءةُ على الشّاطئ. قراءةٌ تشعرُكَ بأنّكَ تقرأ بجسدكَ.

حلوى الحُلْقُوم عند العربيّ[1]

أحياناً تُهدَى حلوى الحُلْقُوم في علبةٍ من الخشب الأبيض منقوشة بجهاز البيروغراف. تلك حُلْقُومُ العودة من السّفر، أو تدقيقاً الحُلْقُوم-التي-تُقتَنَى-هديّةً-في-آخر-لحظة. ومن العجيب أنّنا لا نرغب البتّة في هذه الحُلْقُوم. وحتّى الورقة الشّفّافة التي تفصل بين الطّبقات، وتمنع التصاق قطع الحلوى، يبدو أنّها تمنع من الاستمتاع بتلك الحُلْقُوم بين أصبعَين - الحُلْقُوم التي تُتناول بعد القهوة، التي تقضمها بأطراف القواطع، دونما اقتناعٍ، وأنتَ تنفض باليد الأخرى ما سقط من دقيقٍ على سترتكَ.

كلّا، إنّ الحُلْقُوم المشتهاة هي حُلْقُوم الشّارع. تلك الحُلْقُوم التي تلمحها معروضةً في الرفّ، في شكلِ هرمٍ بسيطٍ، لكنّه يبدو حقيقيّاً، بين علب الحنّاء، والحلويّات التّونسيّة بألوانها؛ أخضر اللّوز، ورديُّ السكاكر، أصفرُ الذّهب. الدكّان ضيّقٌ وممتلئٌ بالبضائع من الأرض إلى السّقف. تدخل إلى المكان في خجلٍ متعالٍ، مبتسماً ابتسامةً لبقةً أكثر ممّا ينبغي لتكون صادقة، وقد خلخلَ توازُنكَ هذا العالمُ، حيثُ الأدوارُ ليست موزّعةً توزيعاً بديهيّاً. هل هذا الفتى ذو الشّعر المفلفل بائعٌ، أم تراهُ صديقُ ابنِ صاحب المحلّ؟ منذ بضع سنواتٍ كان لا بدَّ لكَ أن تجد في أمثال هذه الدّكاكين بائعاً أمازيغيّاً يعتمر قَلَنسُوَةً زرقاءَ، فتقتحم

1) المقصود بالعربيّ عموماً صاحب الدّكان في الحيّ، لأنّ ممتهني هذه الحرفة كانوا عموماً من المهاجرين المغاربيّين.

المكان مفعماً بالثّقة. أمَّا اليوم، فلا مناص لكَ من أن تجازفَ، وتمضي متلمِّساً المكانَ تلمُّسَ الأعمى، معرِّضاً نفسكَ لخطر الوصم: أن توصم بأنّكَ شخصٌ نهِمٌ يجوب المكان في ذهولٍ. لن تعرف ما إذا كان الفتى بائعاً، ولكنّه - على أيِّ حالٍ - يبيع، وهذا اللايقين المتواصل يغرقكَ في مزيد من الحَيرة. ستُّ قِطَع حُلْقُوم؟ بنكهة الورد؟ كلّها بنكهة الورد، فضلاً. وتزداد حَيرتكَ إزاء هذا الأدب الذي أُغدق عليكَ في عفويَّةٍ تخشى أن تكون ساخرةً. لكنّ «البائع» قد رتَّب الحُلْقُوم بنكهة الورد في كيس ورق. تُلقي نظرةً مفتونةً على مغارة الكنز المترعة بأكياس الحمُّص وقناني سِيدي إبراهيم، حيث حُمرةُ علب كوكاكولا قد اتَّخذت صبغةً قبايْلِيّة. تنقِد البائعَ دون أيَّ إحساسٍ بالنّصر، وتكاد تغادر المكان كاللّصِّ حاملاً الكيس بيدكَ. لكنْ، ما هي إلَّا أمتارٌ، وتقف على الرّصيف بغتةً لتغنم مكافأتكَ. حُلْقُوم دكَّان العربيّ لا تُؤكَل إلَّا هكذا، على الرّصيف، خلسةً، في نداوة المساء، ولا بأس إن امتلأتْ أكمامُكَ بالطّحين المتناثر.

مساء الأحد

مساء الأحد! لا نمدُّ الخوان، لا نعدّ عشاءً حقّاً. على التّوالي، يقصد كلٌّ منّا إلى المطبخ، لينتشل منه - وهو وحظّه - وجبةً خفيفةً، ما تزالُ طريّةً - لذيذٌ هو الدّجاج البارد في سندويتش مع صلصة الخردل، ولذيذةٌ كأسُ نبيذ بوردو التي تشربُها على عجلٍ لإفراغ القِنِّيْنَة. لقد غادر الأصدقاء ما إن دقَّت السّاعة السّادسة، فما يزال أمامكَ وقتٌ طويل. تفتح الصنبور لتملأ حوض الاستحمام. حمّامُ مساءِ أحدٍ فعليٌّ، مع الكثير من الرّغوة الزّرقاء، كثير من الوقت لكي تستسلم للطّفو بين لاشيء ولا شيء، بين لاشيئَين قطنيَّين ضبابيَّين. تصبح مرآةُ الحمّام معتمةً، وتلِين الأفكارُ. احرص على ألَّا تفكّر في الأسبوع الذي ينتهي، واحرص أكثر على ألَّا تفكّر في الأسبوع الذي سيبدأ. استسلم لفتنة هذه التموُّجات الصّغيرة التي ترتسم على أطراف أصابعكَ بفعل البلل الدّافئ. ثمَّ فقط حين تفرغ من كلِّ شيٍ، انتشل نفسَكَ. ما رأيكَ في أن تتناول كتاباً؟ أجل، بعد حين. أمَّا الآن، فلتكتفِ بمشاهدةِ برنامجٍ تلفزيوني. وليكن أغبى برنامج ممكن. آه! أن تشاهد لأجل المشاهدة، بلا ذريعة، أو رغبة، أو حجَّةٍ: شيءٌ مثل ماء الحمّام: ذهولٌ يخدِرُ برفاهيَّةٍ بيِّنَة. تظلُّ حتَّى اللّيل تحسبُ نفسكَ في أفضل حالٍ، خليَّ البال. وآنئذٍ فقط ينقضُّ عليكَ الحزن. شيئاً فشيئاً يصير التلفاز مزعجاً، فتطفئه. تسيح في مكانٍ آخرَ، سياحة تفضي بكَ أحياناً حتّى الطّفولة، وقد اجتاحتكَ ذكرياتٌ مبهمةٌ، ذكريات المشيِ بحذرٍ على خلفيّة هواجس

المدرسة والغراميات المختَرَعة. تشعر بكلِّ تلك الأحاسيس تجتاحكَ. لأنّ ذاك الشّعور المبهم الذي يتسلَّلُ إلى الرّوح قويّاً كمطر الصّيفِ، ذاك الألم والرّضا الذي يعاودكَ، ألوفاً - هو مساءُ الأحد. كلّ مساءات الأحد حاضرةٌ هنا، في هذه الفقاعة الزّائفة التي لا يستقرُّ بها شيء. في ماء الحمَّامِ تتجلّى الصُّوَر.

الممشى المتحرِّك في محطَّة مونبارناس

وقت مربوحٌ، وقتٌ ضائع؟ على أيِّ حالٍ، إنّه كعلامة «بين قوسَين» طويلةٍ، هذا الرّصيف المتحرِّكُ، مستقيماً إلى الأبد، صامتاً. في الأصل، ثمَّة شبه اعترافٍ: لا يمكن أن نفرض ممرّاً بهذا القدر من الطّول، عبوراً هائلاً إلى هذه الدّرجة. لذا فإنّ من حقِّ عبيدِ القلق الحضريِّ أن يُفيدوا من لحظة هَدأةٍ. شرط أن يواصلوا التقدُّم مع التّيّار، أن يحوِّلوا هذا التّخفيف الغائمَ، في مسار نضالهم، إلى تسارعٍ موضوعي.

إنّ الممشى المتحرِّك في محطّة مونبرناس. هائلُ الطّولِ. تنخرط فيه، بالخوف نفسه الذي يتملَّككَ، حين تنخرط في سلالم المتاجر الآلية. ولكنْ، هنا لا وجود للأدراج المثنيّة الشبيهة بفكيَّ تمساح. كلُّ شيءٍ يجري في اتِّجاهٍ أفقيّ. وبالتّالي ينتابكَ الدّوار نفسُه الذي تشعر به حين تنزل درجاً في الظّلامِ، وتحسب أنّكَ وضعتَ قدمكَ على آخر درجة، والحالُ أنّ بعدَها درجاتٍ. ما إن تنزل هذا التيَّار المائيّ الجاري، حتَّى يهتزَّ كلُّ شيءٍ. هل جريانُ الممشى هو ما يجبركَ على شيءٍ من التصلُّبِ، أم تراه ردَّةُ فعلٍ: تتسعيضُ عن هذا الاستسلام المباغت بانكفاءٍ على الذّاتِ؟ ترى أمامكَ بعضاً من مهووسي العجَلَة، يضاعفون من سرعةِ الممشى بأن يخطوا خطواتٍ واسعةً. لكنْ، من الأفضل للمرء أن يظلَّ مراقِباً متربِّصاً، واضعاً يده على الدّرابزين الأسود.

في الاتّجاه المعاكس، تنزلق نحوَكَ الهيئاتُ الشّعائريّةُ، وهناك كما هنا، نفسُ النّظرة المتظاهرة بالغياب. ما أغربها من طريقةٍ في الالتقاء، قريبَين ومنيعَين، في هذا الهروب المتسارع الذي يتظاهر باللامبالاة. مصائر مأخوذةٌ لبرهة، وجوهٌ تكاد تكون مجرَّدة، تحوم على خلفية فضاءٍ رماديّ. وأبعدَ، الممرُّ المخصَّص للمشاة الذين لا يرجون غفراناً، أولئك الذين يزدرون سهولة الممشى الميكانيكيّ. يسيرون بسرعةٍ، مهجوسين بإبراز ما في الاستسلام للكسلِ من جنونٍ. تتجاهلهم: إنَّ رغبتهم في إشعاركَ بتأنيب الضّمير تنطوي على شيءٍ من الفظاظة والسّخف. عليكَ أن تتمسَّك بفتنة الممشى الآليّ الجامحة. إنّها حمَّى حكيمةٌ، تجتاحكَ طولَ المسارِ الحزين. في هذا السّكون المنفلت، تتحوَّل إلى شخصيّة من شخصيات الرّسَّام ماغريت، غلالةٌ من التّفاهة الحضريّةِ تلتقي فيها ثنائيَّاتٌ زائلةٌ على شريطٍ مسطَّحٍ إلى ما لا نهاية.

السينما

لا تعدُّ السينما خَرجةً بالفعل. فأنتَ بالكاد تكون مع الآخرين. إنّ ما يهمُّ في المقام الأوّل هو ضربٌ من حالة الطّفو النّاعمة التي تشعر بها حين دخولكَ القاعة. لم يبدأ الفيلم بعد؛ ضوءٌ شبيه بضوء الأكوريوم يغربلُ المحادثات المكتومة. كلُّ شيءٍ منفوخ، ناعمٌ، مكتوم. سائراً على السّجّاد، تندفع بأريحيّة مصطنَعةٍ نحو صفِّ مقاعدَ شاغرةٍ. لا يمكن أن تقول إنّكَ تجلس على المقعد، ولا حتّى تستريح عليه. يلزمكَ أن تستألِف هذا الكيانَ الارتداديّ، نصفَ المتماسك، ونصفَ الرّخو. تنكمشُ على نفسكَ، وتتّخذ وضعيّتكَ، في حركاتٍ دقيقة لذيذة. وفي الآن نفسِه، عليكَ أن تنشغل بحركاتٍ أخرى موازية، الحركات التي تتوجّه بها نحو الشّاشة، خالطاً بين الانخراط والمشاركة الجماعية وبين المتعة الأنانيّة.

عند هذا الحدِّ تتوقّف المشاركة أو تكاد. ما قولكَ في هذا العملاق، المتحرِّر، الذي ما يزال يقرأ جريدته، على بُعد ثلاثة صفوف إلى الأمام؟ وقد تنطلق بضع ضحكات في الصّالة، حيث لا يفترِض السّياقُ الضّحك، أو ربّما يحدث الأسوأ: أن يصمت الجميع في اللّحظة التي تضحك فيها أنتَ. في السينما لا نسعى إلى أن ننكشف. نخرج إلى السّينما لكي نتخفّى، لكي ننكمش على أنفسنا، ولكي نغوص ونغور. في السينما نكون غارقين في قعر المسبح، وفي الأزرق يمكنُ توقُّعُ أيِّ شيءٍ من هذا المشهد المصطنع، الخالي من العمق، المشهد الذي تلغيه الشّاشةُ. لا

رائحةَ، ولا نفحة من هواءٍ في هذه الصّالة التي تصبو إلى انتظارٍ مسطَّحٍ، مجرَّدٍ، في هذا المعبد الذي شُيِّد تأليهاً لسطحٍ.

ثمَّ يكون الظّلامُ، فيشتعل المعبدُ. سوف تطفو، سمكةَ هواءٍ، طائرَ ماءٍ. سوف يتخدَّر الجسد، وتصير ريفاً إنجليزيّاً، شارعاً في نيويورك، أو مطراً في بريست. أنتَ الحياةُ، والموت، والحبّ، والحرب، غارقاً حزمةِ ضوءٍ حيث يتراقص الغبار. وحين تنكتب على الشّاشة كلمة «النّهاية»، تظلُّ في مكانكَ، ساجداً، منقطع النَّفَس. ثمَّ يوقد مجدَّداً النّور الذي لا يطاق. عليكَ أن تفردَ نفسك في إحساسٍ قُطنيٍّ، وأن تتحرَّك نحو المخرج كالمُسرنم. احرص على ألَّا تنطق فوراً بالكلمات التي سوف تكسِرُ، وتحكُمُ، وتلاحِظ. على السّجَّاد المدوِّخ، انتظر بهدوء وصبرٍ حتَّى يمرَّ أوَّلاً العملاق صاحب الجريدة. كرائدِ فضاء أخرق، حافظ لثوانٍ على هذا الشّعور الغريب بانعدام الوزن.

كنزة الصّيف

دائماً ما يأتي الأمرُ متأخِّراً عمَّا تظنُّ. لقد مرَّ سبتمبر على عجلٍ، مفعماً بإكراهات الدّخول. وإذ يعود المطر، فتقول «هوذا الخريف»؛ وتتقبّل أن يكون كلُّ شيءٍ مجرّد «بين قوسَين» قبل أن يأتي الشّتاء. لكنَّ جانباً منكَ، جانباً لا تعترف به حقّاً، ينتظر شيئاً ما. أكتوبر. ليالي الصّقيع الفعليّة، وفي النّهار السّماءُ الزّرقاءُ على أولى الأوراق الصّفراء. أكتوبر ذاك النّبيذ الدّافئ، وتلك النّعومة الرّقيقة، نعومة الضّوء، حين لا تكون السّماء صافيّةً سوى في الرّابعة مساءً، حين يَتَّخذ كلُّ شيءٍ تلك البضاضة المستطيلة، بضاضةَ الإجاص المتساقط من تعريشة.

إذّاك تحتاجُ كنزة جديدة. أن تلبس الكستناءَ، نباتات الطّبقة السّفلى، الثمرات البنِّيَّة، حمرةَ فطر الروسولا الورديّةَ. أن تعكس الفصلَ في نعومة الصّوف. لكنْ، ينبغي أن تكون كنزة جديدةً: أن تختار النّارَ الجديدة التي ستبدأ في الانطفاء.

ضمن درجات الأخضر؟ أخضرٌ إيرلندي، أخضرُ البازلّاء الجافَّة، ضباضيٌّ، ويسكي خشنٌ، بريٌّ ومنفردٌ مثل حقول الخثّ، لونِ العشب المجزوز. أو أصهب؟ لكنْ، ثمّة ألوان ودرجاتٌ من الصّهبة، شَعرُ أوفيليا، الرّغبة في أن تتذوّق مذاق الزّمن الماضي، خبز بالزبدة، خبز بالبهارات، والغاباتُ في المقام الأوّل، صهبة الأرض، صهبة السّماء، الرّوائح المتعذّرة الإمساك، روائح المعارض والخشب، روائح الفُطْر والماء. بيج رمادي،

ما المانع؟ كنزةٌ صوفيّةٌ محبوكةٌ بعُقَد واسعةٍ متقاطعةٍ كصلبانٍ، كأنّما ما يزال ثمَّة مَنْ يملك وقتاً ليَحيك لكَ كنزة.

كنزةٌ واسعةٌ جدّاً: سيُبطَلُ الجسدُ، وتصير الفصلَ. كنزةٌ كمأوى آمنٍ، لعلَّ وعسى ... حتَّى بالنّسبة إلى النّفس، جيِّدٌ هذا اللّعبُ على نهايةِ الأشياء، على تدرُّج النّهايات. أن تختار راحةَ الأشجان. أن تشتري لونَ الأيَّام، كنزةً جديدة للخريف.

أن تعلمَ خبراً
وأنتَ في السيَّارة

«فرانس أنتر، إنّها الخامسةُ مساءً، ساعةُ الأخبار، يقدِّمها لكم.» فاصلٌ موسيقيٌّ قصير ثمَّ «لقد وصلَنا الخبرُ للتوِّ، غادرَنا جاك بريل».

عند هذه النّقطة، تنحدر الطّريق السيَّار سريعاً في وادٍ لا يتمتَّع بأيِّ جاذبيَّةٍ خاصَّة، في مكانٍ ما بين مخرج إفرو ومخرج مانت. لقد مررتَ من هنا مئات المرَّات، ولم يكن يشغلُ بالكَ شاغلٌ غير تجاوز شاحنةٍ أو البحث عن فكَّةٍ لأداء مقابلِ المرور من الطّريق السيَّار. ثمَّ بغتةً هو ذا المشهدُ قد انشطرَ، ثُبِّت على الصّورة. يحدث الأمرُ في جزءٍ من الثّانية. تعلم أنّ الصّورة قد التُقطت. فجأةً هذا المسارُ الذي يتألّف من ثلاث حاراتٍ، المسارُ الغُفلُ الكئيبُ، الصّاعدُ شطرَ وادي السّين؛ فجأةً يتَّخذ طابعاً مميَّزاً، فرادةً ما كنتَ تتصوَّرُها. ربَّما حتَّى الشّاحنة ماركة أنتار ذات اللّونَين الأحمر والأبيض، السّائرة على الصفِّ اليمين، ستتخلَّدُ في الصّورة. كأنّما تكتشف فجأةً حقيقةَ مكانٍ لم تكن تودُّ أن تعرفَه، مكانٍ كنت تربطه فقط بشيءٍ من الملل، بتعبٍ خفيف، بصورةٍ مجرّدةٍ كئيبةٍ للمسار.

أمّا لجاك بريل، فلديكَ كثيرٌ من الصّور، ذكرياتُ طفولةٍ مرتبطةٌ بالأغاني، موجةُ الأجساد التي انطلقت في تصفيقٍ هائلٍ حين غنَّى أُغنيَّة أمستردام في مسرح الأولبيا سنة 1964. لكنّ كلَّ ذلك سيتبدَّد.

سيمرُّ الزّمنُ. بدايةً ستسمع كثيراً من أغاني بريل، كثيراً من الثناء. ثمَّ أقلّ، فأقلّ، إلى أن ينعدم كلُّ شيء. لكنّ الواديَ على الطّريق السّريع، ساعةَ تلقَّيت الخبرَ، سيظلُّ يعاودكَ كلّ وقتٍ وحين. هو أمرٌ عبثيٌّ أو سِحريّ، لكنّكَ لا تملك حياله شيئاً. الحياةُ تصنعُ فيلمَها، وبوسع زجاجِ السيَّارة الأماميّ أن يصير شاشةً، وجهازِ الرّاديو كاميرا. قِطَعٌ من شريط الفيلم تدور في الرّأس. ولكنّ ذلك من فعل الرّحلة أيضاً. الألفةُ الزّائفةُ للمناظر التي يمحو بعضُها بعضاً، قبل أن يتبلور أحدُها ويأبدَّ ذات يوم. إنّ موت جاك بريل طريقٌ سيَّارٌ مؤلَّفة من ثلاثِ حاراتٍ، وعلى خطِّ اليمينِ شاحنةُ أنتار ضخمة.

الحديقة السّاكنة

تتمشّى في الحديقة صيفاً، في مكانٍ ما من منطقة أكِيتين. أنتَ في أواسط شهر أغسطس، بداية الظّهيرة. لا هبَّة ريح. حتّى الضّوء يبدو نائماً على حبّات الطّماطم: فقط نقطة بريقٍ على كلِّ ثمرةٍ حمراء. الأمطار التي هطلت مؤخّراً عفّرتها بشيءٍ من تراب. فكرة جيِّدة أن تغسلها بالماء البارد، وتتذوّق لحمَها الذي ما يزال نديّاً. في السّاعة التي لا تمضي، ما عليكَ إلّا أن تتذوّق تباينَ الألوان الصّبورَ. ثمّة طماطمُ خضراء خضرةً شاحبة، تصير أغمقَ في قلب الوعاء، وأخرى تكاد تكون برتقالية في قلبها ترقُد لمسةٌ من حمض. هذه لا يبدو أنّ الغصن ينحني من ثقلها. وحدها الطّماطم النّاضجة ميّالةٌ إلى الانحراف.

يتّكئ سُلَّمٌ على شجرة البُرْقُوْق. كثيرٌ من الثّمار سقط في الممرِّ الصغير الذي يحوط حديقة الخضراوات. من بعيد يبدو البُرْقُوْق بنفسجيَّ اللّون، لكنْ، حين تقترب منه تكتشف صراعاً بين الأزرق الداكن والوردي، وبضع حبّات من السُكَّر عالقة بالقشرة الهَشّة: لقد تفتَّحت الثمارُ الساقطة وأضحى لحمها المشمشيّ يبكي وقد اسمرَّ لونُه بفعل الأرض الرطبة. وعلى الشجرة، الخوخات التي لم تُتِمّ نضجَها بعدُ تعلوها حمرةٌ رقطاءُ على خلفيّةٍ حمراء مغراء مائلةٍ إلى الخضرة: تُغريها وتفزِعُها زرقةُ الثمار التي تكبُرها سِنّاً.

تودُّ لو تلوذ بالظِّلّ. لكنّ الشّمس تمطِرُ من خلال الأغصانِ في عذوبةٍ عنيدة. إنّ الشّمس هي المسؤولة عن الشّقرة التي تغطّي كلَّ خضراوات الحديقة، هي المسؤولة عن شقرة الخسِّ الكسول، وكذا نبات السِّلك النّائم على الأرض. وحدها أوراق الجزر تقاوم مبرزةً خضرةً لاذعةً، كأنّما نحافتُها قد حفِظتها من الاعتلال. وفي أقصى المكان، لصق التحويطة، فات الأوان بالنّسبة إلى شجيرات التّوت: لقد فارقت مرحلة المخملِ العقيقيّ الياقوتيّ، ودخلت مرحلة الاجتفاف الأسمر، مرحلة صدأِ أوراق الرقّ. في الجانب الآخر، على امتداد السّور الحجريّ الصّغير، تمضي شجرة الكُمَّثْرَى في شكل تعريشة، بذاك الترتيب المتماثل للفروع الذي تضفي عليه لمسةً أنثويةً تلك الاستطالةُ الكامدة للثمار المرقَّطةُ بما يشبِه الرّملَ الأصهب. على أنّ النضارة الأشدّ حمضيّةً، النّضارة الأقدرَ على إطفاء العطش، إنّما تصعد من الكرمة المنتشرة على مقربة. تتدلّى العناقيد متردِّدةً بين الذّهبيّ الشّاحب والأخضر المائيّ، بين الكامد والشّفّاف؛ حَبّاتٌ منها ممتلئةٌ نوراً، وحَبّاتٌ أخرى، أكثر تحفُّظاً، ما تزال تحتفظ بطبقةٍ من الوحل-الغبار. على أنّ بعض الحَبّات قد بلغت درجة لون النّبيذ، فتراها تشوِّش على الغوايةِ المراهقةِ، غوايةِ العناقيد الخضراء التي تلتقِطُ شمسَ أغسطس.

الجوُّ حارٌّ، ولكنّ أشجار البُرْقُوْق والمِشمِش والكرز ترخي بظلالها حيث ترقد أيضاً طاولة البينغ-بونغ مثنيةً – بعض ثمار البُرْقُوْق الحمراء قد تساقطت على الطّلاء الزُّمُرُّدِيّ المتقشِّر. الجوُّ حارٌّ، لكنْ، في عمق أعماق شهر أغسطس ترقدُ في الحديقة فكرةُ الماء. حول ساق بامبو طويلةٍ يلتفّ خرطوم سقيٍّ بهُتَت ألوانُه. إنّ في انحناء تعرّجاتِه غيرِ المنتظمِ، وفي تقادمِ وَصْلاتِه المغطّاة بالشّريط اللاصق والخيط، شيئاً

ما ألوفاً، شيئاً ما مسالماً؛ إنّ الماء الذي يأتي من هذا الخرطوم لا يمكن أن ينطوي على عنفٍ كِلسيٍّ، ولا على برودةٍ ميكانيكية. من هذا الخرطوم سيسيل في المساء ماءٌ-عذوبةٌ، ماءٌ-حكمةٌ، سيسيل بما يكفي فقط.

أمَّا الآن، فساعةُ الشّمسِ، ساعةُ السّكون المهيمن على الأشياء كلِّها، ساعةٌ شقراء وخضراء ووردّية – ساعة القطفِ والتوقُّف.

أن تبلِّل حذاءَك الرّياضيّ

بالكاد تبدو الطّريق مبلَّلة. في الوهلة الأولى لا تشعر بشيء. فالخطوة تظلُّ خفيفة، تدوسُ على الأرض، فتشعرُ تحت القَدَم بذاك الاهتزاز الذي يخلِّف فيكَ متعةً، متعة السَّيْر منتعلاً حذاءً رياضياً. حين ينتعل المرء حذاءً رياضياً يكون متحضِّراً بما يكفي فقط لرفع الكلفة بينه وبين العالمِ، دون أن يشعر بذاك الخوف المضطرب الذي تفرضُه القَدَمُ الحافية الحذرة، ولا بتلك الثقة المفرطة التي يخلِّفها في النّفس انتعالُ حذاءٍ أنيقٍ جدَّاً. حين تنتعل الحذاءَ الرّياضيّ يكون الفصل صيفاً، والعالم مرناً ودافئاً، وأحياناً ملتصقاً بالقارِ الذّائب. لكنْ، حين تنتعله على أرض رمليّةٍ، مباشرةً إثرَ هطول المطر، يكون أمراً لذيذاً. يكون الجوُّ عابقاً بالرّوائح. روائح عرانيس الذّرة، وسيقان الخُمَّان، والأوراق المتساقطة من أشجار الحور – فقط تلك الأوراق الصيفيّة الصّفراء الكسولة التي تفضِّل النّوم عند قَدَم الشّجرة. هي ذي الرّائحة الشّقراء. وفي الأعلى، رائحةٌ أميلُ إلى الأخضر الدّاكن تصعد من ضفاف الماء، مع لمسةٍ من نعناعٍ على رائحةِ الوحل الباهتة. بالطّبع، فوق أشجار الحور مباشرةً، تضيق السّماء في لونٍ رماديّ بنفسجيّ، مع ذاك التّباعد بين السّحب المشبعة التي تمتنع عن أن تمطر. المنظرُ، الرّوائحُ، مرونة المشي: تظلُّ الأحاسيس المختلطة متوازنةً. لكنْ، شيئاً فشيئاً يفرِض السّفليُّ هيمنتَه: القَدَمُ، الخطوة، الأرض، تبدو أنّها تجرُّ إلى حِماها معنى النّزهة. وحين يخطر ببالنا أنّ الحذاء الرّياضي مبتلٌّ، يكون الأوان قد فات. التقدُّمُ ماضٍ، لا

هوادة فيه. على هامش اللّوحة تنبثق بدايةُ هالةٍ متردِّدة، ما تلبث أن تمتدَّ وتتَّسع حتَّى تكشف عن خشونة النّسيج كلِّها. ينتابنا الانطباع بأنّنا ننتعل ريحاً، كتَّانٌ من الرّهافة حتَّى إنّه لا تشعر به عند أطراف قدمَيك.

تعبر بركتَين من ماء، وها قد تحوّلَت نعومةُ الشّراع الهوائيُّ إلى خشونةِ كيسِ بطاطس. ليس إحساس البللِ بالشّيءِ الذي يُذكَر، لكنْ، سرعان ما ينضاف إليه إحساسٌ بثقلٍ لا يطاق. تستسلم النّعلُ المنافقةُ، بعد أن تتظاهر بالمقاومة برهةً، تصير هي مصدر الشرّ كلِّه، وسيرُها المعقود ما يلبث أن يغرق في بللٍ متماسكٍ، في انحرافٍ مائيّ، لا شيءَ يتنفَّس. الحاشيةُ المطّاطيَّة مثيرةٌ للشّفقة، لكنْ، ما الفائدة من أن تدفَعَ بلمسةٍ من رفاهيةٍ حداثيّةٍ الكارثةَ التي لا مناص منها؟ إنّ حذاءً رياضياً هو حذاء رياضيٌّ. إن ابتلَّ يزداد وزناً أكثرَ فأكثر، ورائحةُ الوحل تهيمنُ على رائحةِ شجر الحور. ما عادت السّماء تحمل أيَّ إشاراتِ وعيد، ولكنّكَ مع ذلك قد تبلَّلتَ عبثاً، تبلَّلت بغباء، الصّيفُ يعلَق، والرّملُ يلتصق. ثمَّ إنّكَ تعرف. تعرف أنّ الحذاء الرّياضيّ أبداً لا يجفُّ تماماً. على حافَّة نافذةٍ أو في خزانة أحذية، يتكمَّشُ، وينتفخ سيرُه متحوِّلاً إلى حُشوةٍ، لقد صار القماشُ/اللوحةُ ثقيلاً إلى الأبد، والهالة التي كانت تنبثق على هامش اللّوحة، هي ذي قد تجمَّدت وسمجت.

منذ الإشارات الأولى للمرَض يكون التّشخيص مروّعاً: لا أمل في الشّفاء. أن تُبلِّل حذاءكَ الرّياضيَّ يعني أن تَخبرِ اللّذَّة المرَّة: لذَّة غرقٍ تامٍّ.

كُراتُ الزّجاج

في كرات الزّجاج يكون الفصل دائماً شتاءً. تمسك إحداها بيدَيكَ. يطفو الثلج بالبطيء، في دوَّامةٍ منشؤُها الأرضُ، دوَّامةٍ تبدأُ معتمة، متلاشيةً؛ ثمَّ ما تلبث النّدفُ تتباعدُ، فتستعيد السّماءُ الزرقاءُ التركوازيّةُ ثباتَها الكئيب. تبقى آخر طيور الورق معلَّقةً لثوانٍ قبل أن تهوي. كسلٌ قطنيٌّ يدعوها أن تعودَ إلى الأرض. وفي السّكون الظّاهريِّ للمشهد يتردَّد الآن ما يشبه نداءً. كلُّ الكُراتِ سواءٌ. سواءً تعلَّق الأمر بعمقِ بحرٍ تملؤه الطّحالبُ والأسماك، أو ببرج إيفل، أو مانهاتن، أو ببَّغاء، أو منظرٍ جبليٍّ، أو تذكارٍ من سان ميشيل، فإنّ الثّلجَ يتراقص وبهدوءٍ يتوقَّف عن الرّقص، فيتشتَّت، ثمَّ يختفي. على مبنى أمباير ستيت بقيت عالقةً ندفة ثلج، ذكرى أبديّة للأيَّام التي لا يمحوها الماءُ. هنا، على الأرض تبقى متناثرةً بتلاتُ الذّاكرة الخفيفةُ.

كراتُ الزّجاج تتذكَّر. تحلم في صمتٍ بالعاصفة، بالزّوبعة الثلجية التي قد تعود، أو قد لا تعود. غالباً على الرّفِّ ستبقى كراتُ الثلج؛ وستنسى السّعادةَ التي يمكنُكَ أن تُسقطها نُدفاً بين يدَيكَ تلك السُّلطةُ الغريبة المتمثِّلة في إيقاظِ سباتِ الزّجاج الطّويل. داخل الكرة يكون الهواء ماءً. في البداية لا تهتمّ للأمر، لكنْ، لفرط ما تتأمَّلُ الكرة تنتبه إلى فقاعةٍ صغيرةٍ عالقة بالأعلى. فتتغيّرُ نظرتُكَ. لم تعد ترى برج إيفل في سماء أبريليّة زرقاء، ولا الفرقاطة تمخرُ بحراً هادئاً. يكتسبُ كلُّ شيءٍ

صفاءً ثقيلاً؛ خلف الجدار، تطفو تيَّاراتٌ أعلى الأبراج. ممالكُ العُزلات العالية، منعرجاتُ الخطر، حركاتٌ تكاد لا تدرَكُ وسط الصّمت السَّلِس. الخلفيّةُ مطليّةٌ بأزرقِ الحليبِ حتَّى السّقف، حتَّى السّماء، حتَّى السّطح. أزرقُ عذوبةٍ مصطنعةٍ لا وجود لها، عذوبةٍ ينتهي المطافُ بالرّضا الذي تُشعِرنا به، إلى أن ينقلب قلقاً، كأنّما نستشعر فخاخَ القدر في مستهلِّ ظهيرةٍ مفعمةٍ بالقيلولة والغياب. تمسك العالم في يدَيكَ، وسرعان ما تصير الكرةُ دافئةً، بل ساخنةً تقريباً. وبضربةٍ واحدةٍ تمحو العاصفةُ الثجيّةُ قلقَ التّيَّاراتِ الكامنَ. إنّما يسقط الثّلج في أعماقكَ، في شتاءٍ يتعذَّر الوصولُ إليه، شتاءٍ تنتصر فيه الخفَّةُ على الثّقل. عذبٌ هو الثّلجُ في أعماق الماء.

جريدة الفطور

إنّه رفاهٌ متناقض. أن تتَّصل بالعالم في حالة السّلام المثلى، أي في نكهة القهوة. والحالُ أنّ الجريدة تمتلئ أساساً بالفظاعات، بالحروب، بالحوادث. أن تسمع الأحداث نفسها من الرّاديو، يعني أن تغوص فوراً في قلق الجُملِ المقذوف بها كلكَماتٍ. أمَّا مع الجريدة، فالوضع نقيض ذلك. تنشرُها، كما اتَّفق، على طاولة المطبخ، بين آلة التحميص وإناء الزّبدة. تسجّلُ على نحوٍ مبهمٍ عنفَ القرنِ الذي تعيش فيه، لكنّه يكون مضمَّخاً برائحةِ مربىَّ الكشمش الأحمر، والشوكولاتة، والخبز المحمّص. الجريدة في حدِّ ذاتها مسالمةٌ . لا تكتشف فيها اليومَ، ولا الواقع: تقرأ ليبيراسيون، أو لوفيغارو، أو ويست فرنس، أو لاديبيش دو ميدي. تحتَ تأبُّدِ شريطِ العنوان، تصيرُ كوارث الحاضر نسبيّة. فهي ليست هنا إلّا لإضفاء شيءٍ من الإثارة على سكينةِ الشّعيرةِ. بسبب مساحة الصّفحات الكبيرة، وإزعاجِ فنجان القهوة، لا يمكنكَ أن تقرأ إلّا على مهلٍ. تقلِّب الصّفحات بعنايةٍ، ببطءٍ دالٍ: لا يتعلَّق الأمر باستيعاب المحتوى بقد ما يتعلَّق بالاستفادة ما أمكن من الحاوية.

في الأفلام، غالباً ما يُرمز للجرائد بهيجان المطابع، بصياح الباعة المتحمِّسين في الشّارع. لكنّ الجريدة التي تجدها صباحاً في صندوق بريدكَ لا تكون لها الحمَّى نفسها. إنّها تخبرُ بأخبار أمس، أخبار ذاك الحاضر الزّائف الذي يبدو طالعاً من ليلةِ نعاسٍ. ثمَّ إنّ الأعمدة الوديعةَ

أهمُّ من الأعمدة الصّاخبة. تَقرأ الطّقسَ، وهو يتّصف بتجريدٍ شديد العذوبة: بدلاً من أن تتطلّع إلى علامات اليومِ البيّنة في الخارج، تنقعها في الدّاخل، في مرارة القهوة المسَكَّرَة. والصّفحة الرّياضيّة، على نحوٍ خاصٍّ، ثابتةٌ مُطمئِنةٌ: تأتي الهزائم فيها دائماً مشفوعةً بآمال الانتقام، تمُدَّد الآمادُ قبل أن تُستهلَكَ الأحزانُ. لا شيء يحدث في جريدة الفطور، ولذا تهرع إليها. تمُطَّ التلذُّذَ بنكهةِ القهوة السّاخنة والخبز المحمّص. في جريدة الفطور تقرأ أنّ العالم يتشابه، وأنّ اليوم ليس مستعجلاً أن يبدأ.

رواية لأغاتا كريستي

هل حقّاً تحوي روايات أغاتا كريستي وفرةً في الأجواء؟ ربّما نحن مَن يخترع كلَّ تلك الأجواء، إذ نقول لأنفسنا : هذه روايةٌ لأغاتا كريستي. أجل، أين المطر المتساقط على العشب خلف النّوافذ المقوَّسة، والستارُ المزدوج المصنوع من ثوب الشّيت المزيَّنُ بأشكال خضراء خُضرة البطِّ، والأرائك ذات المنحنيات اللّطيفة التي تصل حتَّى الأرض، أين كلُّ ذلك؟ أين مشاهد الصّيد الأحمر الفوشيا التي تجري حول أطقم الشّايِ، وأين منافض السّجائر ويدوود ذات الصّلابة المزرقَّة؟

يكفي أن يشغِّل هركول بوارو خلايا دماغه، ويمسِّد أطرافَ شاربه: نرى لون الشّاي البرتقاليَّ الفاتح، ونشمَّ عطر العجوز ميسز أتكينز، ذاك العطر البنفسيّ اللّطيف.

ثمَّة جرائم قتلٍ، ومع ذلك كلُّ شيءٍ غاية في الهدوء. المظلّات تتقاطر ماءً في مدخل المنزل، وخادمٌ حليبيّةُ البشرة تسير مبتعدةً على الأرضيّة الخشب الشّقراء المفروكة بشمع النّحل. لم يعد أحد يعزف على البيانو العموديّ القديم، ومع ذلك يبدو أنّ حكاية لطيفةً لاذعةً تكشف عن مشاعرها البسيطة في رفوف الصّوَر وفي لوحات الخزف اليابانيّة. ونعلم أنّ ما يهمُّ في المقام الأوَّل، أكثر حتَّى من عنف الجريمة، هو الحبكة، هو اكتشاف الجاني. لكنْ، ما الفائدة في منافسة خلايا دماغ بوارو، وقدرةِ

أغاتا على التحكُّم في الأحداث؟ لا بدَّ أن تفاجئكَ دائماً في الصّفحة الأخيرة، وذلك حقُّها.

لذا، في هذا الفضاء المألوف بين الجريمة والمُذنب، تبني لنفسكَ عالماً مريحاً. لهذه الأكواخ الإنجليزيّة كلُّ خصائص الأوبرج الإسباني"[1]، تحمل إليها إشاعاتٍ برَّاقةً من محطّة فكتوريا، والمشجارات الشاطئية، بضرباتِ المظلّات[2]، على امتداد رصيف برايتون، وحتّى ممرّات دافيد كوبرفيلد الكئيبة.

جولات لعب كروكيت، مبتلَّةٌ إلى ما لانهاية. ومساءً يكون الجوُّ جميلاً. قرب النّافذة لاعبو البريدج يستسلمون لآخر روائح زهور الخريف. ثمَّ تأتي جولات صيدِ الثّعالب على خلفية شجيرات العلّيق الصهباء والبلسان.

بالطّبع لا تقول الرّوائية كلمةً من ذلك كلِّه. مُساقاً بقبضةٍ من حديد، تفعل ما يُفعل في مواجهة كلِّ سلطةٍ طاغية: في هدوء، وتقريباً في شيءٍ من الاختلاس، تتذوّقُ كلَّ ما لا ينبغي أن يُرى أو يُستنشَق. تطبخ لنفسكَ، وتستلذُّ الطّعامَ الذي طبختَه.

1) يشير التعبير "أوبرج إسباني" الذي ينتمي إلى القرن الثّامن عشر إلى المكان الذي لا نجد فيه إلّا ما نحمله إليه بأنفسنا.

2) يلمع الكاتب هنا إلى الجملة الشّهيرة في إحدى أغاني جورج براسنز، "بضربات المظلّة"، وفيها يشير المغنّي إلى غيرة جوها على رجُلها، فيمكن أن تؤخذ بالمعنى الحرفي "الضرب بالمظلّة"، أو بالمعنى المجازي "تغطية رجُلها بالمظلة كي لا تراه الأخرى".

المكتبة المتنقِّلة

جيِّدةٌ هي المكتبة المتنقِّلة. تأتي مرَّةً في الشّهر، فتستقلُّها عند ساحة البريد. تعرف مُسبَّقاً كلَّ مواعيد مرورها خلال السّنة - إنّها مكتوبةٌ على بطاقةٍ بنِّيَّةٍ صغيرةٍ تُدَسُّ لكَ في كتاب تستعيره. يوم 17 ديسمبر، من السّاعة 16 إلى السّاعة 18، وتعرف أنّ الشّاحنة البيضاء الكبيرة التي تحمل شعار «المجلس العامّ»، لن تخلف الموعد. مُطَمْئِنٌ هذا التحكُّم في الوقت. لستَ تخشى شرّاً، ما دمتَ تعرف مُسبَّقاً أنّه، في غضون شهرٍ، سيأتي صالون القراءة المتنقِّل ليضيء ببقعةٍ من نورٍ هذه السّاحة. وأجل، في فصل الشّتاء يزيد الأمر روعةً، حين تخلو أزقَّة القرية. فيصير التّرفيه الوحيد المتاح هو المكتبة المتنقِّلة. أوه! ليس ثمَّة حشدٌ من النّاس، فهذا ليس السّوق. لكنْ، ثمَّة هيئاتٌ مألوفةٌ تتلاقى عند الدّرج الصّغير غير المريح المفضي إلى الشّاحنة.

تعلم أنّكَ، في غضون ستَّة أشهر، ستلتقي هنا بميشال وجاك («وأين وصل التّقاعد؟ هل هو وشيك؟») وأرميل وأوسيان (ابنتكَ اسمٌ على مسمًّى، أوسيان، فعيناها فعلاً زرقاوان زرقة المحيط)، وآخرون لا تعرفهم حقَّ المعرفة، لكنّكَ تُحيِّيهم بابتسامةٍ متَّفقٍ عليها: هذا الطّقسُ المتشارَك هو بمثابةِ تواطؤٍ كاملٍ.

باب الشّاحنة غريب. ينبغي أن تنزلق بين جدارَين شفَّافَين من البلاستيك المتين، يقيان الدّاخلَ من التَّيَّارات الهوائية. وما إن تعبر

الجدارَين الشّبيهَين بغرفةِ معادلةِ الضّغط، حتّى تجد نفسكَ على الفور وسط السّجّادِ، والصّمتِ المريح، والتنزُّهِ المُجدِّ. إذ تُحيِّيكَ الصَّبيَّةُ والموظَّفُ الأكبر منها سنّاً، المسؤولان عن استعادة الكُتُب، فإنّهما يشهدان على معرفتكَ، لكنّ مودّتهما لا تذهب حدَّ الابتهاج برؤيتكَ. ينبغي أن يظلَّ كلُّ شيءٍ مكتوماً. حتّى وإن كان ضيق المساحة يفرض، في بعض الأيّام، إظهار فنونٍ من البراعة المتنقِّلة، تجنُّباً للانزلاق نحو الاختلاط، إلّا أن الجميع يظلُّون أحراراً في صمتهم، وفي اختياراتهم. الرّفوف غايةٌ في التنوُّع. لكَ الحقُّ في استعارة اثنتَي عشرة قطعةً في المجمل، ويستحسن أن تختار اختياراً غير متجانس. هذه المجموعة الشِّعرية المؤلَّفة من قصائد نثرية لجون ميشيل مول بوا، لمَ لا؟ «النّهار يبطئ تحت ركامٍ من الأوراق وأزهار الزيزفون.» تكفي هذه الجملة لترغب في الكتاب. سيكون ألبوم كريستوفر فونش الضّخم "اللّوحة المائية في القرن التّاسع عشر" ثقيلاً بعض الشّيء، لكنّه ينطوي على روائع صهباء سابقة على أعمال رافاييل، مناظر فَجرٍ من رسم تورنر، ثمَّ أيُّ امتيازٍ هو أن تستولي، دون خوفٍ من العقاب، على ثلاث كيلوغراماتٍ ضخمةِ الحجمِ من الرّفاه الكامد؟! مجلّة فوتوغرافية تعرض صور الأطفال التي التقطها بوبا، شريطٌ لأناشيد باخ، ألبوم عن طواف فرنسا: لكَ أن تدسَّ في سلَّتكَ كلَّ هذه العجائب المتباينة؛ وإذ تبلغ غاية رضاكَ تقول لنفسكَ، سأضيف الآن قطعاً أخرى أتناولها عشوائياً عن الرّفوف. ولا ينفكُّ الأطفال يقرفصون أمام القصص المصوَّرة، والرّوايات المصوَّرة، ويقولون أحياناً مفتونين: «لقد أخبرتي السيِّدةُ أنّني أستطيع أن آخذ قطعةً أخرى».

وإذ يخمد العطش، يهِن الاختيار. تتصاعد في الفضاء الضيِّقِ رائحة صوفٍ فاتر، رائحة ثوب غبردين مبلَّل. ولا سيَّما من الأرضيّة يصعد

إحساسٌ مميَّزٌ، ما يشبه خطَرانَ طائرةٍ بالكاد يُحسُّ، تمايلاً. لقد أغفلنا توازن إطارات العجلات، الأساس المتنقِّل الذي يقوم عليه هذا المعبد العائليّ. إنّ دوار البحر هذا وسط دفء الكُتُب، هو الإقامة في جوف الشّتاء. موعد مرور المكتبة المتنقِّلة القادم: الخميس 15 يناير، من الساعة 10 إلى السّاعة 12، ساحة الكنيسة، ومن الساعة 16 إلى السّاعة 18، ساحة البريد.

الجفجفة[1] في الأركان

على واجهة المحلِّ عُرضَت قمصانٌ زهرية، حمَّالات صدورٍ ضيِّقة، سراويل داخليّة قصيرة بتدرُّجاتٍ لونيّة نَضِرة، عليها رسوم زهور البازلَّاء العطرية بنفسيجة وزرقاء، وبضعُ صورٍ لعارضاتٍ نحيفاتٍ يرتدينَ أطقماً سوداء أشدَّ إثارةً. إنّ التلميحات الشّيطانيّة الصّادرة عن هذه الملابس الدّاخلية الحريريّة تنفيها الابتسامةُ الصّريحة لفتيات-الأغلفة اللّواتي ينظرنَ إليكَ مباشرةً، من غير أيِّ أفكار خفيّة. بالتّأكيد قد يكون الأمرُ، على خلاف ما تظنُّ، أي قمّةَ الانحراف. تدخُلُ المحلَّ بذريعةٍ هي أبسطُ وأصدقُ ما يمكن:

- هلاّ مررتَ في طريقكَ على مدام روزيير، فتأتيني منها بأزرارِ كبس؟

مدام روزيير! أجل إنّ القائمة على هذا المتجر المثير، متجر الغوامضِ الرّسميّة، تحملُ اسماً دالاًّ على الحشمة التي عفا عنها الزّمن[2] . أمَّا الأطقمُ الشّيطانيّةُ، فيشقُّ علينا أن نظنَّ في أنّها يمكن أن تُباع من طرف امرأةٍ، تُدعى مدام روزيير، في مكانٍ ما من عتمة الرّفوف.

في الخارج كان الجوُّ ثقيلاً، جوّاً مطبوعاً بحرارةٍ عاصفيّة، لاحقكَ ضغطُها الخانقُ إلى كشك الجرائد، بل حتَّى الصّيدليّة المجاورة

---

1) صوت الثوب الجديد.

2) كان اسم روزيير فيما مضى يُطلق على الصّبايا اللّواتي يُشهد لهنَّ بالعفّة والاستقامة.

الفخمة. لكنْ، عند مدام روزيير، الجوُّ لطيفٌ، جوٌّ قشدة – لون كلِّ تلك الأدراج الضّيئلة المكدَّسة حتَّى السّقف. المتجرُ ردهةٌ طويلةٌ؛ وفي أقصاه تنتصب منضدةُ البائع. وفي المسندَين اللّذَين يليان المنضدة، تجلسُ عجوزان، إحداهما تلبس قماشَ ساتين فلاحيَّاً، وقد وضعت على ركبتَيها قبّعةَ قشٍّ زيَّنَها شريطٌ، والثّانيةُ ترتدي وزرةً زرقاء كانت فيما مضى شائعةً بين طالبات المدارس. لابسةُ قماش الساتين مجرَّدُ زائرة، أخذها الحديثُ، أمَّا صاحبة وزرة الطّالبة، فهي مدام روزيير. تقوم من جلستها، وتقترب في تعجُّلٍ مُتملِّقٍ، لكنّكَ ما تلبث أن تدرك أنّها غير آسفةٍ على انقطاع ثرثرةِ رفيقتها المجتاحةِ. انقطاعٌ لا يدوم إلَّا برهةً. على الرّغم من حضوركَ تظلُّ الرّفيقةُ تُطلق جملاً منتظمة، لا صدى لها، ولا هوادة فيها:

- أنا، يا عزيزتي، لم تعد لي رغبةٌ في النّسج!

- ينبغي أن تعطيني شيئاً من القطن لأطرِّز به.

- الثلاثاء المقبل موعد معرض الدّواجن، أليس كذلك؟

- أيّ حَرٍّ هذا! أيّ حَرٍّ!

في أقصى المحلِّ تُخلي الجَفجفةُ مكانَها لتطريزات الكانفا التي تمثِّل غزالاً محاطاً بكلاب الصّيد، غجريّةً رشيقةً، طائراً غرِّيداً، منظراً بروتانيّاً. لكنْ، حول المنضدةِ تُرى كنوزُ المكانِ. أوَّلُها أزرارٌ من كلِّ شكلٍ مرتَّبةٌ، من الأصغر إلى الأكبر، على ألواح من ورق مُقوَّى بيضاء. أزرارٌ من مينا الزّجاج، ومن خزفٍ عاديٍّ. أزرارٌ مصقولة صقلاً بسيطاً، لا معنى لها إلَّا من حيث هي تُعرضُ جنباً إلى جنبٍ مع مثيلاتها. ستُقدِمِ على فعلٍ يرقى إلى تدنيس المقدَّساتِ إن أنتَ اشتريتَ أزرارَ الأخضر الباهت، فحرمتَها

من المشاركة في استمراريةِ اللّطائفِ اللّونيّة، من الأخضر البُرْقُوْقِيّ، إلى الأخضر الزُّمُرُّدِيّ، إلى الورديّ المَرْجَانيّ. والقاعدةُ اللّونية التكاملية نفسُها تنسحب على بَكرات الخيط، المعروضة على لوحٍ في الحائط، ناضحةً بتدرُّجات لونيّةٍ من ألطف ما يكون التدرُّج. أمَّا بالنّسبة إلى قطن التّطريز، فإنّ فنَّ اللّطائفِ أشدُّ سرِّيَّةً وإلغازاً. تُخرِجُ مدام روزيير تلك الأقطان من الأدراج حيث تتماوجُ لتَقارُب نبراتِها اللّونيّة، وتلوِّحُ بحفنةٍ من الخيوط كتعابين سمراء، مربوطةٍ من طرفيها بحلقةٍ من ورق أسود.

تعبر بالكَ خاطرةٌ متناقضة. مدام روزيير، التلميذةُ في مدرسة الرّتق الصّبورة، شفيعةُ التّطريزات المنذورة للنّظرات النّاعمة من عيون خجلى، مدامُ روزيير حاميةُ حمى الملابس الرّفيعة التي نلبسها حتَّى نبليها، وما ننفكُّ نغيِّر أزرارها، مدام روزيير، هل تستعمل لأناقتها ملابسَ داخلية من هذه القطع المزيّنة برسوم البازلَّاء العطريّة؟ ومع ذلك قد يظنّها المرء منذورةً لأن تلبس ملابس داخليّة ورديّةً كلون البدَن، ملابس من تلك التي تتكدَّس، في يوم السّوق، على مفرشٍ، غيرَ بعيدٍ من متجرها؛ منذورةٌ لأن تفضِّل مزايا الرّاحة التي توفِّرها السّراويل المصنوعة من نسيج قطن بيلو التي تتكدَّس جنب فساتين الفلاَّحات.

ومع ذلك؛ إن كانت مدام روزيير قد حافظت طيلة حياتها على تقاليد الملابس الدّاخليّة الفاخرة، فلا شكَّ في أنّها قد تبنَّت، على طريقتها الخاصّة، بعضَ المحاولات، قليلاً من التغنُّج، وشيئاً من الجراة. بما يناسب سنَّها بالطّبع. ولكنْ، ربَّما يكمن هنا سرُّ هذا الجوِّ الثمين جدَّاً والنديّ جدَّاً الذي يطفو في عتمة الأركان. لن يكون الكراكو[1] الذي ترتديه مدام روزيير منذوراً لإرضاء فظاظةٍ ذكوريّة، ولا لتحقيقِ رضاً ذاتيٍّ

1) الكراكو سترة نسائية انتشرت في فرنسا خلال القرن الثامن عشر، تتميّز أساساً بأكمامها اللاصقة على الذّراعين.

لصبيّةٍ أمام مرآتها. كلاَّ، سيكون كاراكو مثالياً، كاراكو زاهداً، اختِير للونه ونسيجه لا غير. لذلك تظلُّ مدام روزيير، على الرّغم من تواضع وزرتها الزّرقاء، مضمَّخةً بهالةٍ فريدةٍ لا تُدرَك: إنّها هي عذراءُ الجفجفة.

أن تغوص في المشاكيل[1]

تغوص في غرفة المرايا تلك، الغرفة اليابانيّة؛ تكتشف الحواجز السرِّيَّة؛ تتذوَّق الضّوء السّجين في أسطوانة الكرتون الخانقة. مسرحُ ظلال وغموض، كواليسُ عرضِ أضواءٍ عاريةٌ، جدرانُ جليدٍ معتم. هناك تتهيَّأ المعجزة، في القسوة المبهمة للصّور المتضاعفة. وعند طرفيَ الأسطوانة ليس ثمَّة ما يستحقُّ الذِّكْر: من هذا الجانب عينُ المتلصِّص البديهيّةُ بداهةً سخيفةً؛ ومن الجانب الآخر، بين دائرتَين معتمتَين، البلّوراتُ الملوَّنة، زجاجٌ مصبوغٌ بنبرةِ طلاءٍ زاهية حادَّة، يخفِّفُ من حدَّتِها ضبابُ المسافة وفكرةُ الغبار. في الأسفل يكون المشهَدُ مسطَّحاً تسطيحاً تامّاً، وفي الأعلى النّظرةُ باردةٌ. لكنّ شيئاً يتهيَّأ فيما بينهما؛ في المخفيِّ، في المعتم، في المغلق، في هذا الأنبوب الشّديد النّعومة، المغطّى بطبقةٍ رقيقةٍ من الورق الصقيل، الموغلِ في المجهوليّة، والمنمِّ غالباً عن ذوقٍ سيِّئٍ؛ الأنبوبِ ذي الرّقوش المتشابكة.

تنظُر، فترى في داخل الدُّرَر، بين الشّرشيري، والبنفسجيّ العتيق، والبرتقاليّ الثّقيل، تتجزَّأ في سيولةٍ مائيّة. قصرُ الصّقيع المشرقيُّ، حرملكُ قطع الجليد الطافيةِ، بَلُور ثلج السلطانِ. رحلة فريدة من نوعها، ما تنفكُّ تتكرَّر. رحلةٌ من الفيروزيِّ إلى ساحل جواهرِ الشّمال، رحلةٌ من الرُّمانيِّ إلى بحرِ الخلجان الدافئةِ العبِقِ. بلدانٌ تخترع نفسَها، بلدان بلا

1) جمع مِشكال وهو أداة بصريّة، في شكل أنبوب، يعكس الضوء الخارجيّ إلى مالانهاية، وبالألوان.

أسماء، بلدانٌ لن تبلِّغَكَها أيُّ خريطةٍ. ما إن تَلُفَّ الأسطوانةَ، حتَّى تلفي نفسكَ في مكان آخر، بعيداً، ووراءكَ البلادُ الحارَّة والباردة قد بدأت تنحلُّ وتتفكَّكُ في صريرِ انكسارٍ موجعٍ.

ما همَّكَ أن تهجُر ما هجرتَهُ! حسبُكَ بضع بلّوراتٍ من زجاجٍ مصبوغةٍ، تعاودُ سيرتَها فيُخترَع البلدُ الجديدُ. تنتظر صورةً، وتقريباً هي ما يأتي، لكنّها لا تطابقُ تماماً الصّورة التي انتظرتها. وإنّ هذا الاختلاف الطّفيف هو ما يصنعُ كُلفةَ هذا السّفر ودوخَتَه، بل يكاد أحياناً يصنع يأسَه: لن تبلُغ أبداً بلادَ البلّورات المتحرِّكة. إنّ هذه الفسيفساء السّماويّة لن تعود أبداً خضراء ملائكيّةً وحمراء حمرةَ مخملِ المسارحِ، إنّ لها الأبَّهةَ الهندسيّةَ التي تطبع حدائقَ لوفر، والحميميّةَ الخانقةَ التي تميِّز منزلاً صينيّاً. سقفٌ، أو جدارٌ، أو أرضيّةٌ: هي بالفعل صورةٌ للأرض، لكنّها صورةٌ تطفو في جاذبيّةِ فضاءٍ متشظٍّ. ينبغي أن تبقى هناك، أن تتقوّض مطوَّلاً - إن وضعتَ الأسطوانةَ، فإنّ الحركةَ الألطفَ من شأنِها أن تُبعثرِ القارَّة؛ مجرَّدُ نفحةِ نفسٍ تنقلبُ إعطاراً، فيتطايرُ القصرُ.

في حجرةٍ سوداء ينعكسُ اللّغز. كلُّ شيءٍ يضيع، وكلُّ شيءٍ يختلط، كلُّ شيءٍ خفيفٌ، كلُّ شيءٍ هشٌّ. لستَ تملك شيئاً. فقط إن لم تتحرَّك، سوف تغنَمُ بضع ثوانٍ من الجمال: صبرٌ مُدوَّرٌ، خلوٌ من أيِّ رغبة. قليلٌ من الفرح الرّصينِ العابرِ: فرحٍ نمسك به بين إبهامٍ ووُسطى الكفَّين. عليكَ أن تلمسَه بالكاد.

أن تتَّصل من هاتفٍ عموميّ

بدايةً هي ليست سوى متواليةٍ من الإكراهات المادِّيَّة، غالباً ما تتمُّ في انزعاجٍ: البابُ الثقيلُ المنافقُ التي لا تدري أبداً هل تدفعه-تسحبه أم تسحبه-تدفعه؛ والبطاقة المغناطيسيّة التي ينبغي العثور عليها بين تذاكر المترو ورخصة السّياقة، هل ما يزال فيها ما يكفي من رصيد؟ ثمَّ النّظرة المسمَّرة على الشّاشة الصّغيرة، والإذعان للتّعليمات : اِرفع السمَّاعة. اِنتظر. وفي الفضاء المغلق، الشّديد الضَّيق، الذي امتلأ بُخاراً، تقف منكمشاً، متصلِّباً، غير مرتاح. وكما لو أنّكَ تلامسُ مفاتيح بيانو، تطلب الرَّقْمَ ضاغطاً على الأزرار المعدِنيّة، فتنطلق منها نغماتٌ لاذعةٌ وباردة. تشعر بنفسكَ أسيراً داخل متوازي الأسطح المستطيل، أقرب إلى أن تكون سجيناً، منكَ إلى أن تكون منعزلاً. وفي الآن نفسِه تعرفُ أنّ ثمَّة طقوسَ عبورٍ: يلزم تقديم فروض الطّاعة إلى الميكانيزم المتصلِّب، كي تعبرُ إلى الحرارةِ الأشدِّ حميميّة وذهولاً - الصّوتِ البشريّ. ثمَّ إنّ الصّوت يمضي متقدِّماً، من غير أن نحسَّ به، نحو هذه المعجزة: يُخلي الصّدى الصّقيعيُّ الصّادرُ عن العزف على مفاتيح الآلة، مكانَه لضربٍ من الأُغنيَّةِ السريَّةِ التي تقودك إلى نقطة الارتباط – أخيراً، نقراتُ الاتِّصالِ الواقعة في طبقةٍ أعلى، طبقة ضرباتِ القلب، وانبجاسُها في شكلِ خلاصٍ.

تلك هي اللّحظة بالضّبط التي ترفع فيها رأسَكَ. تأتيكَ الكلمات

الأولى في ابتذالٍ رائع، انفصالٍ زائف: «نعم. هذا أنا – نعم، لقد تمَّت الأمور على ما يرام – أنا بجانب المقهى الصّغير، أجل، ساحة سان-سولبيس».

ليس المهمُّ ما نقوله، بل ما نسمعه. عجيبة هي قدرة الصّوت على أن يكشف وحدَه عن حالة الشّخص الذي نحبُّه – عن حزنه، عن تعبه، عن هشاشته، عن شدَّة إقباله على الحياة، عن فرحه. في غياب الأفعال والحركات، يختفي التحفُّظ، وتستقرُّ الشّفافية. فجأةً تلمح الرّصيفَ أمامَكَ، وكشك الجرائد، والأطفال الذين يتزحلقون. إنّ تلك الطّريقة التي تستقبل بها بغتةً العالمَ فيما وراء زجاج الكابينة، شديدةُ العذوبة وسحريّةٌ: كأنّما يولد المنظرُ مع الصّوتِ البعيد. ترتسم على شفتَيكَ ابتسامة. تصير الكابينة خفيفة، ليست سوى زجاجٍ. وذاك الصّوتُ القريب جدَّاً، البعيد جدَّاً، يخبرك أنّ باريس لم تعد منفى، وأنّ الحَمَام يطير على المقاعد، وأنّ الفولاذ قد انهزم.

العجلة والدَّرَّاجة

إنّ العجلة نقيض الدَّرَّاجة. هيكلٌ انسيابيٌّ بلونِ النيّون البنفسجيّ، يندفع بسرعةِ سبعين كيلومتراً في السّاعة، هذة درَّاجة. طالبتان في الثّانوي تعبران جنباً إلى جنب قنطرة بروج، هذه عجلة. والفرقُ قابلٌ لأن يُختَزل. أن يتوقَّف ميشيل أوديار[1] مرتدياً سراويل نيكرس[2] وجوارب طويلة، ليشرب كأس نبيذٍ أبيض صِرفاً على منضدةِ حانة، هذه درَّاجة. أن ينزل مراهقٌ، يرتدي سروال جينز، عن صهوة مركوبِه، وفي يده كتابٌ، فيشرب ماءً بالنّعناع على شرفة مقهى، هذه عجلة. إمَّا أن تكون في هذا المعسكر، أو تكون في ذاك. ثمَّة حدود فاصلة. عبثاً يُجهد سائق العجلة الثقيلة نفسَه في التّلاعب بمقودها المعوجِّ، إذ تظلُّ دائماً عجلةً. وسدىً يزوّد أصحابُ شبهِ درّاجات السّباقِ مركباتِهم بواقياتِ الطّين، إذ تظلُّ دوماً درَّاجاتٍ. يجدر بالمرء ألَّا يحاول الإيهام، وأن يتحمَّل انتماءَه إلى هذا الفصيل أو ذاك. إنّ المرءَ ليَحملُ في دواخله الكمالَ الأسودَ لعجلةٍ هولنديّة، مع إيشاربٍ يتماوجُ على الكتف. أو يَحلُم بدرَّاجةِ سباقٍ خفيفةٍ، لدرجة أنّ سلسلتها تنزلق كطيرانِ نحلةٍ. على العجلة، تكون راجلاً بالقوَّة، متسكِّعاً بين الأزقَّة، مستمتِعاً بقراءة الجريدة على مقعد. أمَّا على الدرَّاجة، فلا تتوقَّف البتَّة: فإذ تكون مصبوباً حتَّى الرّكبةِ في

1) ميشيل أوديار (1920-1985) رجل أدب وسينما فرنسيّ شهير.

2) Knickerbockers، وتسمّى اختزالاً knickers، نوعٌ من السّراويل المنتفخة التي تُحزم على مستوى الرّكبة، وقد انتشرت خلال النّصف الأوّل من القرن العشرين.

قالبِ بدلةٍ فضائيّة، تكون غير قادرٍ على المشي إلّا كما يمشي البطُّ، وبالتّالي لا تمشي.

هل يتعلَّق الأمرُ بالبطء والسّرعة؟ ربَّما. ثمَّة، مع ذلك، عمّالٌ يقودون العجلة بكلِّ سرعةٍ وفعاليَّة، وشيوخٌ على الدَّرَّاجة يسيرون بكلِّ تؤدة ودَعَة. فهل يتعلَّق الأمر إذن بالثقل بمقابل الخفَّة؟ بالتأكيد، أكثر ممَّا يتعلَّق بالسّرعة والبطء. من جهةٍ، حُلمُ الطّيران والتّحليق، ومن جهةٍ أخرى أُلفةٌ راسخةٌ مع الأرض. ثمَّ. التّناقض التّامّ. تناقض الألوان. للدَّرَّاجةِ البرتقاليُّ المَعدِنيّ، وأخضرُ تفَّاحِ جْراني، وللعجلةِ البنِّيُّ الباهت، الأبيض المصفرّ، الأحمر الكامد. كذلك الاختلافُ في الخامات والأشكال. لِمَن الامتلاءُ، والصّوف، والمخمل، والتنانير الأسكتلنديّة؟ للأخرى الملابسُ الضيِّقة المصنوعة من كلِّ قماشٍ اصطناعيّ.

يولد المرء منذوراً للعجلة أو للدَّرَّاجة، ويكاد الأمر يشابه انتماءً سياسيّاً. لكنَّ المنذورين للدَّرَّاجة ينبغي أن يتخلَّصوا من هذا الجانب من شخصيَّتهم، كي يعرفوا الحبَّ - لأنَّنا لا نحبُّ إلَّا متى كنَّا من فريق العجلة.

الكرة الحديديَّة للمستجدِّين

وإذن، ماذا ستفعل؟ هل ستسدِّدُ أو تصوِّب[1]؟

ومن الضّروري أن تقول الجملة السّابقة بنبرةٍ تحاكي اللّكنةٍ المرسيليّة محاكاةً رديئة، لأنّ ذلك من أعراف اللّعبة. تشعر بنفسكَ متصلِّباً بعض الشّيء، والكُرتان في يدَيكَ. سدى تتظاهر بالسّخرية كي تتشجَّع، سدى تَعِد نفسَكَ بشراب الباستيس أو الفاني، سدى تتقمَّص غضب الممثِّل ريمو، أو سخريةَ فرناندل، إذ سرعان ما تقتنع بأنّكَ لا تمتلك الأسلوب، وأنّ عليكَ أن تتراجع إلى مستوىً ثانٍ. كلَّا، ليس مستوى تلك القرفصة المريحة التي يتَّخدها أوَّلُ المصوِّبين، مباعداً بين ركبتَيه، متأمِّلاً المسارَ القويم الذي ينبغي أن تسلكه كرتُه التي يقلِّبها في كفَّه المثنيّة. ولا مستوى الصّمت الذي يسبق الإنجازات العظيمة التي يقوم بها الرّامي – وفي قلق انتظارِه، ثمَّة ما يشبه مجازفةً مستفزَّةً، مجازفةً تكاد تبلغ حدَّ الكمال. ثمَّ إنّكَ لستَ تلعب البيتونغ، بل الكرة الحديدية[2]: كم من ضربة مفاجئة، إحلالُ كرةٍ محلَّ كرة على نحوٍ مذهلٍ، كم رميةً رخوةً تنتهي على مقربةٍ من الكُرة الهدف، وكم رمية انتحارية تزيحُ الكرةَ التي لم نصوّب عليها أصلاً!

1) ضربُ كُرات الخصم لإبعادها، أو التصويبُ على الكرة الهدف للاقتراب منها.

2) يستعمل المؤلّف هنا الاسمين اللّذين يستعملان مترادفين للّعبة (البيتونغ والبُول التي تعني حرفياً كُراتٍ).

لكن ذلك لا يمنع. لا يمنع أنّ رأسكَ يمُوج بالضّجيج، بذاك الضّجيج الصّيفيّ، ضجيجِ تصادم الكرات الحديديّة اللامعة. ومع الضّجيج تستعيد جُملاً، تستعيد حركات.

- هل تراها أنتَ؟

إذّاك تقترب، وتشير بطرف نعلِكَ إلى «الصّغيرة»، إلى الكرةِ الهدف، المختبئة بين حصاتَين بيضاوَين. ثمَّ شيئاً، فشيئاً، تتباعد الجُمل، وتجرؤ على التركيز أكثر فأكثر. وبدلاً من أن تمكُث منتظراً دورَكَ بجانب الدّائرة، تتقدَّم لتتموقع في قلب الحدث، قريباً من الكُرات التي لُعبت.

- هل تجاوزَت؟

تتناول قطعةَ خيطٍ. الجميع يدنو من الكرة. تقيسُ المسافة، ويصعب عليكَ ألّا تحرِّك أيَّ شيء من مكانه، وأنت تَرزح تحت أنظار الخصومِ المتشكِّكة.

- نعم، ما تزال ملعوبة. أوه، لا تفصل بينهما كيلومترات!

تعود لتلعب الكرة الأخيرة بخطواتٍ تتظاهر فيها باللامبالاة. لن تبلغ بكَ الغطرسةُ حدَّ النّزول على ركبتَيكَ، لكن هذه الأخيرة سوف تلعبها ببطءٍ، في شيءٍ من التحفُّظ، كأنّما تؤدِّي طقوساً. وبعد ثوانٍ تتابعُها وهي تختار مسارَها. وعند نهاية سيرها، سوف تقتربُ، راسماً على وجهكَ علامة استنكارٍ خفيفةً، تشفُّ عن شيءٍ من التواضع الزّائف. لن تكون كرتُكَ في الطّليعة، ولكنّها ما تزال في السّباق، ولم تخذُلكَ.

في بداية اللّعبة كنتَ تجمعُ كُراتِ الآخرين. لكنْ، الآن، ها أنتَ ذا قد صرتَ منهم. وها كُراتُك هي التي تُجمع.

فهرس الكتاب

فيليب ديليرم ولد في 27 نوفمبر 1950. كان والداه مدرّسين. درس الأدب في جامعة نانتير، قبل أن يصبح مدرساً في نورماندي. ومنذ عام 1975، يعيش في "بومون لو روجيه" مع زوجته مارتين التي تعمل أيضاً معلمة أدب ورسامة ومؤلفة كتب أطفال.

يدير ديليرم نادياً للمسرح ونادياً لكرة القدم في مدرسته الثانوية، وقد ألّف نحو عشرين كتاباً من بينها "الجرعة الأولى من البيرة"، وكتاب "اغتيال القيلولة".

المتوسط

يحوّل فيليب دِلرم "السّعادة" من مفهوم معقّد إلى تجربة يوميّة بسيطة. "أربعٌ وثلاثون" لوحةً يرسمها من الحياة اليوميّة، متوالياتٌ سرديّة/شعريةٌ تفيض برضا السّعادة الذي يخلّفه فينا الانتباهُ إلى الأشياء البسيطة، والانخراطُ في دقائق التّجارب التي نمرُّ بها عادةً من غير أن ندقّق التأمّل، مع أنّها الأساس الذي ينبني عليه إحساسُنا المرهف بالأشياء.

تتعاقبُ الفصول كلّها، وتتدرّجُ الألوانُ بكلّ لطائفها، ويَخبرِ القارئ مباهج الطّفولة والشّيخوخة، مستعيداً عالماً من البساطة والفكاهة والحنين، مدركاً فضيلة البطءِ وسعادة تزجية الوقت، متلمّساً الوجه الآخر للسّعادة البسيطة، وجه المرارة الذي يخلّفه فينا الشّعور بأنّ كلّ الجرعات التي تلي الجرعة الأولى ما هي إلّا تنويعاتٌ إيقاعيةٌ، مهما علَت لن تخفيَ أصالة اللّحن المحوري الذي تلاشى ما إن انطلَق!

باع كتاب "الجرعة الأولى من البيرة"، منذ صدوره، أكثر من مليون نسخة، وما زال يحظى بتقدير القراء والنّقاد.

ISBN 979-12-5591-119-7
9 791255 911197
المتوسط